محمد فريد أبو حديد

عنترة بن شداد

اقرأ ٤٣
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

١

كان قوامها مثل الغصن الرطيب إذا اهتز فى مطالع الربيع ، وكان لونها مثل لون الخمر إذا أضاءت فى كأس من البلور ، وعيناها السوداوان تصيدان فى حلاوة وأنفها الجميل ينحدر إلى فم وديع . وكان فى أذنيها قرطان من الذهب تتدلى منهما حبات من لؤلؤ البحرين أهداهما إليها أبوها مالك من غنيمة غنمها من قافلة كانت تهبط إلى أرض الحجاز . تلك هى عبلة ابنة الفارس العبسى مالك بن قراد وكانت عائدة من عرس ابن خالتها فى هوازن ، تلبس ثوباً معصفراً من الكتان يلمع فى ضوء الشمس فاقعاً ، وتضع حول رأسها خماراً من الحرير المصرى من صناعة (دبيق) يتغير لونه فى شعاع الضوء ويأتلق فوق وجهها الوضىء .

وكان يأخذ بزمام بعيرها وهى فى هودجها شاب أسمر اللون يشبه قوامه الرمح الذى فى يمينه ، قامة عالية ورأس مرفوع وصدر فسيح ، وقد شمر عن ذراعين مفتولتين قويتين . وكانت عيناه

تبصان فى لمح خاطف ، وأنفه الأقنى ينحدر إلى فم قوى فيه شىء من الغلظ . وكان يحدو بأراجيز يتغنى بها يمزج فيها بين أنغام الحرب وأنغام النسيب . وكانت عبلة تسمع حداءه وهى مطمئنة إلى أنها فى حماية الفارس الذى لا يجرؤ الأعداء على الاقتراب من ركبه عنترة عبد شداد .

وسارت الإبل فى قطار طويل يتبع أحدها الآخر تخطو خطواً وئيداً لا تعبأ بشىء مما حولها ولا يستحثها شىء من أمامها ولا من خلفها . وجاء فى آخر الركب جمع من الأتباع والعبيد يسيرون مشاة يسوقون الرواحل التى تحمل الزاد والماء و يدفعون فى أعجازها بعصيهم الغليظة حتى لا تنقطع عن القافلة .

و بلغ الركب مورد الماء وكانت تلك آخر مرحلة فى السير قبل العودة إلى منازل عبس فى أرض الشرَبَّة والعلم السعدى. فأوقف عنترة بعيره الأول ووقف القطار كله لوقوفه، وأسرع العبيد والأتباع إلى ما اعتادوه عند النزول فأناخوا الإبل وجعلوها صفوفاً فى ناحية من الوادى ، وأناخ عنترة بعير عبله وأزاح الستار عن هودجها ونظر إليها باسماً ومد إليها يديه ليساعدها على النزول فردت عليه بابتسامة شكر وقالت وهى تقفز خفيفة :

— لقد أجهدك السير يا عنترة وأنت تأبى الركوب .

فأسرع عنترة قائلا وهو يسندها :

— وكيف يصيبنى الجهد وأنا أحدو بعيرك يا سيدتى ؟

وسارت عبلة إلى ظل شجرة قريبة وقالت وهى تميل إلى الرمل لتمهد لها مجلساً :

— لم أسمع شيئاً يشبه حداءك يا عنترة . لقد أحسست البعير ينشط لانشادك .

فأجاب عنترة مسرعاً :

— وكيف لا يطرب به إنشادى وهو فى وصفك ؟

فضحكت عبلة ضحكة تشبه غناء الطير ومالت لتجلس، فأسرع عنترة فرمى شملته على الرمل ومدها لتجلس عليها ثم نظر إليها نظرة سريعة شملت كل صورتها وأسرع وهو خفيف الحركة يثب فى خطواته لكى يرى سائر من فى القافلة من بنات عبس ونسائها ويساعد من تحتاج منهن إلى مساعدة .

ولما فرغ من ذلك نادى العبيد وأمر بعضهم أن يذهبوا إلى الماء ليملأوا الحوض لسقاية الإبل ، وأمر آخرين منهم أن يضربوا أخبية النساء عند فم شعب قريب من الماء ، وأمر غير هؤلاء أن

يوقدوا النيران لإعداد الطعام، ثم ذهب إلى ناقة بيضاء فحلب منها في إناء حتى ملأه ووضعه في الظل فوق صخرة عالية ليبرد في الهواء . ومضى بعد ذلك إلى البئر فسقى جواده ثم ركبه ودار حول الماء ليرى هل هناك قوم ينزلون عنده ، حتى إذا اطمأن إلى انه في مأمن وأن ليس هناك ما يخشاه أوغل بين الكثبان وجعل يجوس خلالها ويتأمل ما على رمالها من آثار الأقدام ، وأخفاف الإبل ومخالب الحيوان . ثم عاد يسير سيراً وئيداً وهو يغني وينقل طرفه في جوانب الأفق حتى اقترب من الماء ، فوثب عن فرسه وألقى زممه على ظهره ومسح بكفه على ظهره ، وبعثه بيده إلى ناحية من الوادي . وأدرك الجواد ما يقصده صاحبه فحمحم وهز رأسه ووثب كالغزال وانطلق الى جانب الوادي فجعل يقتطف من أطراف الأعشاب البضة التي خرجت مع أول الربيع .

واتجه عنترة بعد ذلك إلى الماء وهو لا يزال يغني، فوجد العبيد قد فرغوا من سقايتهم ، وسمع صوت ضحكات الفتيات ترن في أقصى الشعب ، فأطل من وراء صخرة فرآهن يتواثبن ويعبث بعضهن بالماء ويتقاذفن به .

ورأى عبلة وهي تلهو بينهن وتجاوبهن، فوقف في ظل الصخرة

يتأمل وجهها ويستمع إلى صوتها وهى تكركر فى ضحكها ، وعاودته ذكريات أحلامه التى كان يكتمها فى طيات صدره ولا يجرؤ على أن يصارح بها نفسه ، وأحس نبضة حزن أليم إذ تذكر أنه لا يزيد على أن يكون عبد عمها شداد وأنه لن يستطيع أن يفوز منها بأكثر من أن يدعوها قائلا « سيدتى » ، وأن يملأ لها إناء اللبن لكى تشرب منه وأن يخدمها فى رحلاتها ويمد إليها يديه ليسندها اذا نزلت من هودجها . بل إنه لم يكن ليجرؤ على أن يتنفس باسمها أمام أحد من عبس خوف أن يتحدث الناس بأنه يتطلع إليها فيحرمه أبوها مالك من رؤيتها ، فما كان مالك ليرضى أن يتطلع عبد مثله الى ابنته الجميلة التى يتنافس على التقرب اليها سادة الشبان من كرام الأنساب .

وفيما هو فى خيالاته رأى عبلة قد أقبلت حتى وقفت عند الحوض فمالت عليه ترى صورتها ، وجعلت تصلح من شعرها ، ومن وضع وشاحها الذى اضطرب فى أثناء جريها ولعبها ، فلم يملك نفسه واندفع من مكانه مسرعاً نحوها وقال لها بصوت رفيق .

— عرارة يانعة من عرار الربيع وحق مناة !

فجفلت عبلة وصرخت عند ما سمعت صوته، ثم اطمأنت عند ما رأته وقالت ضاحكة :

— لك الويل ياعنترة !

فمضى عنترة قائلا :

— واقحوانه باسمة سقاها الندى !

وأقبل الفتيات من آخر الشعب عند ما سمعن صوت عبلة فى صراخها ، فلما رأين عنترة وهو يحدثها انفجرت منهن ضحكة مرحة وأسرعن اليه يصحن به حتى أحطن به وجعلن يعبثن به من كل جانب، ويتواثبن حوله ويجذبن أطراف ثوبه وكل منهن تتجه اليه بكلمة من فكاهة أو سباب مزاح ، إذ تعودن منه وداعة العبد الذى لا يغضب .

وقالت احداهن وهى مروة ابنة شداد وكانت أجرأهن عليه :

— إنه جاء يتجسس علينا أيتها الفتيات !

فمد يديه نحوها وقال :

— وهل كنت لأحرم نفسى من النظر الى ظباء غريرة تمرح فى خلاء ؟

فصاحت مروة ضاحكة :

— والظباء لا تدرى أن الأسد يتربص قريباً منها ...

فضحكن وأقبلن عليه وكل منهن تقذفه بكلمة ، وهو ينقل نظره بينهن ضاحكا حينا أو متظاهراً بالغيظ حيناً ، وهن يزدن ضحكا ويمضين فى العبث به .

واقتربت منه فتاة فصاحت .

— وحق مناة لا ندعك حتى تنشد لنا من شعرك !

فصاح الفتيات جميعاً :

— نعم انشدنا يا عنترة .

وقالت مروة ابنة شداد :

— والا قطعناك حتى لا ندع منك الا أسنانك البيض .

فالتفت عنترة حوله حتى وقعت عينه على عبلة فقال :

— لن أقول شيئاً حتى تأذن لى سيدتى .

فصاحت الفتيات بعبلة : مرى عبدك أن ينشدنا . مرى عبدك يا عبلة أن ينشدنا والا أحطنا بك أنت .

فقالت عبلة ضاحكة :

— حسبكن أيتها الفتيات خبثاً !

فصاحت بها مروة :

— مريه يا عبلة . مرى هذا العبد الذى لا يأتمر إلا بأمرك .

فقالت عبلة وهى تظهر بالغيظ :

— ما أخبثك يا عنترة إذ تحرض علىّ هؤلاء !

فقال عنترة : وماذا يغضبك ياسيدتى ؟ إنى لن أطيق أن أكون عبد واحدة منهن . لست أرضى الا أن تكونى أنت سيدتى .

فزاد ضحك الفتيات وأقبلت عليهن عبلة تدفعهن فى صدورهن فى رفق وصاحت متظاهرة بالغضب :

— قل شعرك يا عنترة حتى تكمد صدورهن . فوحق مناة أن الغيرة لتأكل قلوبهن كلما سمعن إنك تنشد شعرك لى .

فوثب عنترة فى مرح وجعل ينشد متغنيا بقطع من شعره ، والفتيات يضربن بأكفهن على وقع إنشاده وعبلة تنظر إلى وجهه الأسمر الحسن القسمات، وتتأمل حركته الرشيقة وهو يمثل مواقفه فى القتال حيناوطعناته للعدو حينا، أو يصف عدو الخيل واضطراب الحرب، حتى انتهى إلى النسب فجعل يصف محاسن فتاته ونبل شيمها وعلو حسبها، وتغير مظهره عند ذلك فاعترته هزة وارتجفت نبرات صوته واتجه إلى عبلة كأنه يخاطبها . وهدأت حركته بعد

عنفها ولانت نظراته بعد أن كانت تخطف كالبرق، وفتح الفتيات أعينهن مأخوذات بما كان ينبعث فى ثنايا شعره من حرارة، حتى انتهى من الإنشاد وهو يلهث وينظر إلى عبلة فى وجد غامر . وهدأت الأصوات لحظة وعبلة تنظر إليه فى دهشة، ثم انفجرت صيحة من الفتيات واندفعن نحو عنترة يستعدن إنشاده. فانفلت مسرعا من بينهن وذهب إلى فم الشعب حيث ترك فرسه، ودار حول الماء حينا ينظر إلى العبيد وهم فى شغل من إعداد الخيام وإنضاج الطعام ، ثم مضى إلى الكثبان يجوس خلالها وهو غائب فى مناجاة شجونه الثائرة .

وذهب الفتيات إلى حيث ضربت الخيام . وأقبلن على من هناك من النساء فحدثنهن بما كان ، وكل منهن ترسل فى حديثها كلمة تصور بها ما أحست من الغيرة من اتجاه شاعر عبس عبد شداد إلى عبلة ابنة مالك وهو ينشد أشعاره كأنه لا يقصد غيرها بالنسيب . وكانت أشدهن حبثاً وعنفا مروة ابنة شداد، فأرادت أن تغيظ عبلة ابنة عمها مالك فجمعت الفتيات وأخذت تنشد وهن يرددن النشيد مصفقات فقالت :

أما رأيتم عنترة   يسير سير القسورة

في حلة مُعصفرة ولمة مضفَّرة

وعمة مكورة

أما سمعتم قوله أما عرفتم فعله

ويل له يا ويله ينشد منذ الليلة

عنتر عبد عبلة

وتعالى ضحكهن بعد ذلك وجعلن يرددن النشيد ويعبثن بعبلة حتى غضبت وذهبت إلى خبائها ، فسرن وراءها وجعلن يجذبنها وهي تدافعهن . وفيما هن في ذلك أقبل عنترة عائدا يحمل قعب اللبن، فلما رأينه أقبلن عليه وأحطن به وجعلن يرددن نشيد مروة . ولكنه مضى هادئا بالقعب حتى قرب من عبلة فقال :

— لا عليك يا سيدتي من هؤلاء .

فقالت عبلة غاضبة :

— حسبك يا عنترة فقد جرأتهن علي .

فمد يده بالقعب نحوها باسما وقال :

— لا عليك يا سيدتي . انهن كما تعرفين حمقاوات عبس .

فعلا ضحك الفتيات وصاحت به مروة :

— امسك أيها العبد وإلا . . .

ووثب الفتيات إلى الإناء فأخذنه وجعلن يشربن منه وعنترة واقف ينظر إلى عبلة إذ تسير مغضبة إلى خبائها .

وسار وقلبه واجف فانتحى مكانا على كثيب فى طرف الخيام وجعل ينظر إلى الفضاء الذى حوله وهو ثائر الأشجان . وكانت ضحكات الفتيات ترن فى أذنيه من بعيد كأنها أصوات عاصفة ثائرة . فما كان عنترة عندهن إلا عبداً ، وما كانت عبلة لترضى أن يعرف صاحباتها أن عنترة يتجه بانشاده إليها

٢

قضى عنترة ساعات يناجى نفسه فى الليل الساجى وكان مستغرقا فى هواجسه عند ما سمع صوتا من ورائه يناديه :

— أما إنك لحارس غافل .

فالتفت إلى ورائه مجفلا فلما رأى ذلك الذى يناديه تبسم وقال :

— لم يكن غيرك ليفعل ذلك أيها الخبيث

وكان هذا أخاه من أمه شيبوب الذى لم يكن يفارقه فى رحلاته ويرعاه بعينه أينما كان

فقال شيبوب : بئس حارس القوم أنت ! تبعد عن منازل

الحرم وتخلو على مثل هذا الكثيب البعيد ؟ فهل تأمن أن يكون الذى أتى من ظهرك عدواً ؟

فقال عنترة : صدقت يا شيبوب . ولكن عدوى لايجرؤ على أن يقرب منى .

فقال شيبوب : وإنك لمتناجى النجوم كأنها تحدثك . لقد يخيل إلى أحيانا أنك تخلو إلى شيطانك .

فقال عنترة : نعم هى النجوم التى أناجيها كما تقول . إنى أنظر إليها فيخيل إلى أنها تحدثنى ، فأحيانا تضحك وأحيانا تبكى وأحيانا تسخر .

فقال شيبوب : وأحيانا تصيح غاضبة بغير شك .

فقال عنترة . نعم تصيح ولكنك لا تستطيع أن تسمعها .

فقال شيبوب : وماذا كانت تقول لك الساعة ؟

فقال عنترة فى حزن : كانت تصيح بى « أيها العبد لم جئت إلى هذه الأرض » ؟

فقهقه شيبوب وقال : انها إذا لحمقاء . لقد أتيت إلى الأرض كما يأتى هذا الناس جميعا . تقذف بهم أمهاتهم إليها .

فقال عنترة : صدقت ياشيبوب إنها أمى التى قذفت بى . إنها

هى التى جاءت بى إلى هذه الأرض لأرعى إبل شداد أو لأقضى نهارى فى نضال أو قتال وكلما مر بى رجل نظر إلى بمؤخر عينيه قائلا « هذا عبد شداد » . فإذا جاء الليل أويت إلى مضجعى فلا أكاد أستقر عليه حتى تساورنى الهموم وتلهب قلبى الأحقاد فأثب خارجا من ظل بيتى لكى استروح من أنفاس الليل الباردة لعلها تذهب عنى حر قلبى .

فقال شيبوب فى خفة : أهذا ما جاء بك إلى هنا .

فقال عنترة فى حزن : نعم هذا ما جاء بى إلى هنا ؟

فقال شيبوب : حسبت أنك تنتظر موعداً من أحداهن . إن النساء يعجبن بك يا عنترة ، ولو كنت أفوز منهن بعشر أعجابهن بك لما قضيت ليلة إلا على موعد .

فضحك عنترة فى فتور وقال : هو طبعك الذى أعرفه . ولست أحب أن أسبك بمثل ما يسبنى الناس به فأقول لك « أيها العبد » ، ولكنى كلما رأيت خصالك لم أملك إلا أن أراك عبداً . إنها شيمة العبيد التى فطرت عليها فلا تعرف من المرأة إلا جسدها .

فضحك شيبوب ضحكة طويلة وقال :

— وماذا تجد أنت فيها غير جسدها ؟ بل ماذا تجد من الرجال ألا أجسادهم ؟ إننى لا أرى منك إلا هذا الجلد الأسود الذى يشبه جلدى ، وخير لك أن تستمع إلى نصحى وتغتنم فرص أيامك فمن يدرى؟ من يدرى ماذا يحمل لك الغد يا عنتره؟ أف لك أيها الرجل ! أتراهن يتواثبن حولك ويجذبنك من أطراف ثوبك ثم لا تجيب هذه بقبلة وهذه بموعد ؟

فقال عنتره فى عبسة :

— لقد علمت يا شيبوب أننى لا أحب أن أعبث بالخزى . ولست أرضى أن أختلس اللذة اختلاساً . والخير عندى أن أقتحم بيت الرجل فأنتزع امرأته من بين يديه قسراً أو اختطف ابنته عنوة وأدعوه إلى نزالى حتى أقتله وأمضى بالمرأة سبية ، هذا خير عندى من أن اختلس قبلة من امرأة أو أخرج فى الليل أتلصص كما يدب الذئب إلى الشاة . لست فى شىء من ذلك يا شيبوب وما هو إلا طبع العبد يوحى إليك بما أنت أهله .

فقهقه شيبوب قائلا :

— طبع العبد الذى فىّ أنا ؟ أتسبنى بذلك يا عنترة ؟ كأنى بك أحد هؤلاء الذين يجرون أذيالهم كبرا عند نادى عبس .

فقال عنتره بعد لحظة صمت : صدقت يا شيبوب ولاتؤاخذنى، فقد دفعنى الغيظ إلى العنف فى قولى .

ومد يده إلى رأس شيبوب وجعل يمسحه مداعباً ، ثم استمر قائلا : لا تؤاخذنى بما قلت فإنى أحبك يا ابن أمى ، وأرى أنك الرجل الذى تحبنى أشد الحب وأخلصه . وإنك عندى لأكرم من هؤلاء السادة الذين يشمخون بأنوفهم كبراً . إنك لتطلق ساقيك فتجرى أسرع من الظليم ، وما أحلى منخريك إذا هما انفتحا كما ينفتح منخرا الفرس الأصيل وهو يعدو . وانك شجاع القلب طيب النفس لولا هذا الرعب الذى يعتريك من منظر الدماء . ولكنك مع ذلك كله تخالفنى فى رأيك . ولا بأس عليك إذا كنت تخالفنى ، ولكن تعلّم أنك تخالفنى .

فتخلص منه شيبوب برفق ونظر نحوه باسما حتى لمعت أسنانه البيضاء فى ضوء القمر وقال له :

— وإنى والله لأحبك وأرثى لك من هذه الوساوس التى تؤرقك . دعنى أيها المسكين أمضى لحاجتى فإنى تركت ورائى ثريداً وخمراً وقمت أبحث عنك خوفاً من أن يكون قد أصابك

شر. وأحمد مناة إذ لم يصبك شيء إلا مناجاة النجوم .

فتبسم عنترة وقال : عد إلى خمرك وثريدك فانعم بهما .

فقال شيبوب : ألا تحب أن تذوق معى شيئاً ؟ لقد علمت أنك لم تطعم شيئاً منذ الليلة. كل واشرب فوحق مناة ما يخرج المرء من هذه الحياة إلا بهذين : الطعام والشراب .

فقال عنترة باسما : والمرأة أنسيتها ؟

فقال شيبوب ضاحكا : أما المرأة فلا يخرج المرء بها . ومن ذا الذى ينوح عليه إذا قتل ؟ ولقد ذكرتنى بالمرأة ياعنترة . فانك لتهجس بها وتخفى فى قلبك ما يأبى إلا أن يذيع .

فالتفت عنترة إليه فى اهتمام وقال :

ـ وماذا تعنى ؟

فقال شيبوب : لست أعنى إلا ما قلت .

فقال عنترة : دع الخبث وقل لى ما فى نفسك .

فقال شيبوب : دعنى أذهب إلى ثريدى وخمرى .

فنظر إليه عنترة فى هدوء وقال : اجلس ياشيبوب وحدثنى

فانى أحب أن أحس وجودك معى . إننى أحس فى جوارك شيئاً يشبه ما يحسه الطفل إلى جوار أمه .

فضحك شيبوب وقال : ليت زبيبة أمك تسمع قولك هذا . إنها تقتل نفسها هما من أجلك وتقطع قلبها من جفائك .

فتمتم عنترة كأنه يحدث نفسه :

— ليتها لم تكن أمى . ألا بلغها إذا رأيتها أننى أمقتها . قل لها إنها أشأم أم وهبت الحياة لوليدها . ثم اسألها عن أبيك وعن أبى إذا عرفتهما . أتعرف زبيبة ذلك القرد الذى انحدرت أنت من صلبه ؟ سلها إذا استطاعت أن تجيبك . لقد طالما سألتها عن أبى وتأبى إلا أن تقول لى إنه شداد ، ولكنى أراه ينكرنى ولا يرضى أن يهب لى اسمه .

فضحك شيبوب وقال : أما أنا فقد كان أبى من صميم جلدتى ، وإذا كان قرداً فانى به راض ياعنترة . ولقد كنت يوماً من الأيام أعيش حراً فى بلادى قبل أن أحمل إلى هذه الصحراء المقفرة ، ولا أزال أتذكر أبى وهو عائد بجلد النمر من صيده . كنت أنعم كما ينعم القردة بحريتهم لأننى لم أولد عبداً . ولست أحب أن يكون لى أب سوى القرد الذى جاء بى . وأما أنت فاطلب من

شئت من الآباء ودعنى وشأنى.

وهم أن يمضى فى سبيله ولـكن عنترة جذبه إليه فأجلسه فصاح شيبوب قائلا :

ـ أما إنك لفظ عنيف إذ تجذبنى هكذا فتكاد تدق عظامى. ثم لا تزال تحمل علىّ وتعنفنى .

فقال عنترة باسما :

ـ صدقت ياشيبوب فى قولك فانى الليلة سيىء النفس وقلبى ممتلىء حقداً . ولـكنى لا أجد فى هذا الناس كله من ينفس عنى سواك إنك الرجل الذى أثق فى عطفه اذا تحدثت اليه، وآمن جانبه اذا انصرف عنى ، وأطمع فى عفوه إذا أخطأت . أنت شريكى فى غزواتى وربيئتى فى منزلى ، وبك أشد ظهرى وبعينك الحادة أبصر ما خفى على . فحدثنى واصدقنى فنحن فى هذا الحى وحيدان لا يعرف أحدنا إلا أخاه . ولست تجد يا شيبوب فى هذه الأرض من هو أحنى عليك منى ولا من يعرف قدرك مثلما أعرف لك قدرك .

فوقعت هذه الكلمات موقعها من شيبوب فعدل عن عبثه وصمت حيناً ثم قال :

— لست أود أن أبعث إلى نفسك ما لا تحب يا عنترة . فوحق الآلهة جميعاً إن ما يرضيك أحب الى مما يرضينى . وقد كنت لا أعرف لى صاحباً حتى ولدت يا عنترة فوجدت فيك رفيق لعبى ، ثم كبرت فوجدت فيك أملا جديداً ، ولما بلغت مبلغ الرجال وصرت فارس عبس أصبحت عدتى وملاذى . فأنا بك مباه معجب أحس أن ما تبنى من المجد هو مجدى وأن ما تنال من السعد هو سعدى . ولست أبالى أنك ابن أمى فإننى معك كما يسير اثنان فى مفازة لا نجاة لهما إلا بأن يبقيا معاً . ولهذا كنت فى نصحى لك ألتمس أخف الأقوال عليك فلا أظهر لك رأيا إلا فى قول عابث لعله يقع من نفسك وقعاً ليناً . ولـكنى أظن أن أمرك قد صار الى عقدة لا ينبغى لك ولا لى أن نغفل عن حلها .

وعند ذلك سمع صوت غناء ينبعث من ناحية الخيام يحمله النسيم متدفقاً متموجا كأنه صوت عرائس الماء وهى تسبح فوق بحر مضطرب .

فقال عنترة يقطع حديث أخيه :

— أما تسمع هذا الصوت يا شيبوب ؟

فقال شيبوب : ليس لهؤلاء إلا الغناء أو البكاء .

فقال عنترة فى حزن : إنه صوتها . هو صوت عبلة . وأحس أنه يقع فى أبعد شعاب قلبى . إن لكل نغمة منه وقعاً يسرى أثره فى عروقى ، لا بل إنى أجد فيه حساً لا أستطيع أن أصفه بهذا اللفظ الذى اعتدنا أن نصف به الخسيس من حسنا .

فضحك شيبوب قائلا : إنك تأبى إلا أن تقول الشعر فى كل ما تنطق به عنها . إنى أرحمك ولا أملك أحياناً إلا أن أعجب منك .

فقال عنترة : وأنى لك أن تدرك ما أحسه وأنت لم تقاس مثل حبى ؟

فقال شيبوب : ومالى والحب يا عنترة ؟ إن النساء بعضهن من بعض . فما الذى يحملنى على أن أرى فى واحدة ما لا أراه فى سواها ؟ كلهن يرقص ويغنى ويضحك ويثرثر ويأكل ويشرب . ولا فرق بين واحدة وأخرى إلا أن يكون أنفها أطول أو أقصر أو أن يكون فمها أوسع أو أضيق أو أن تكون إحداهن وطفاء الأهداب والأخرى عمشاء .

وسكت الغناء عند ذلك ، فقال عنترة ضاحكا :

— امض ياشيبوب إذا شئت فى حديثك . إنه يقع على سمعى وقوع الندى على العشب الأخضر وإن كنت فيه خبيثاً . تكلم وحدثنى عن نفسك وعن نفسى . ماذا كنت تقول لى آنفاً ؟ أكنت تقول : إن أمرى قد آل الى عقدة لا بد أن نحتال فى حلها ؟ فما تلك العقدة التى تتحدث عنها ؟

فقال شيبوب جاداً :

— أنت تعذب نفسك بهذا الوهم الذى يملكها . إنك ترى عبلة بعين غطى الحب عليها وأخشى عليك عاقبة هذا الوهم .

فقال عنترة ساخراً : وما تخشى على ؟

فقال شيبوب : أخشى عليك غضب أهلها . أخشى عليك أباها مالكا وأخاها عمراً فهما لا يضمران لك حباً . عرفت ذلك ولمسته وسمعته، ولست أكذبك انى أحيانا أتدسس بين البيوت لكى أتسمع الأحاديث عنك .

لقد تحدث الناس عن حبك لعبلة وأنت تحسب أنك تخفيه . وما اجتمع قوم فى ناد إلا ذكروك وذكروها فى همس ، وقالوا إنك لا تقول الشعر إلا فيها . ولم أكن هازلا منذ الليلة وأنا أقول لك إن سرك يأبى إلا أن يذيع . إنهم يتحدثون

عن أشعارك حتى بلغت مالكا وعمراً .ولست أنكر عليك أنك مغرور فى تلك البسمات التى تراها من عبلة إذا حدثتها . فهى لا ترى فيك الا عبداً مطرباً .

فتحرك عنترة فى غيظ وقال فى صوت أجش :

بل تكذب يا شيبوب ويكذب من قالها .

فقال شيبوب متردداً :

وانهم ليقولون ما هو أقذع من ذلك فى أمك .

فقال عنترة فى صيحة مكتومة :

لا يخفى على ذلك وقد سمعته بأذنى . ولست أنكر أن هذا هو الذى يدعونى إلى أن أقسو على هذه الأم المسكينة وأسبها كما فعلت الليلة . فكلما ضاق صدرى لم أجد متنفساً من ضيقى إلا بأن أقسو عليها .

فقال شيبوب هادئاً :

— وليس هذا كل ما أخشى . إنى أشفق عليك من عبلة يا عنترة .

فصاح عنترة: حسبك فانك تكذب أو لقد خدعك رأيك

فقال شيبوب فى عناد :

— لا بل أنت الذى يخدعه رأيه ، فلا رأى لمن أحب يا عنتره . إنك تحبها وهذا يحملك على خداع نفسك ورؤية غير ما تبصر . لن تكون عبلة زوجة لك ، وما هى بالتى ينبغى لك أن تمنى نفسك بزواجها .

وكاد شيبوب يمضى فى حديثه لولا أن سمع أخاه يغمغم بلفظ لم يتبينه فسكت حيناً ثم اتجه إليه سائلا : أقلت شيئاً يا عنتره ؟

فلم يجب عنترة بل مضى فى غمغمته حيناً ثم نطق ببعض أبيات من الشعر جعل يمد بها صوته فى رفق ورقة حتى انتهى من إنشادها واتجه إلى أخيه وقال وهو يتنفس كأنه قد أزاح عن صدره ثقلا :

— إننى أعذرك يا شيبوب فلست تقدر على أن تنظر بعينى ولا أن تحس بقلبى . وقد تكون أسعد حظاً منى ولكنى لا أرضى أن أستبدل قلبك بقلبى .

إننى ساخط على هؤلاء جميعاً ولست أخشى أن يكونوا كلهم على غضابا . ولست أبالى إذا هم علموا حبى فلقد كنت أكتمه خوفاً على عبلة أن تحجب عنى . ولكنى لا أجد فى الحياة أملا إلا أن أحبها ، ولولا هذا الأمل ما بقيت يوماً فى حياتى . لست

أملك قلبي حتى أصرفه عنها ، فإني إذا رأيتها أضاءت لي الآفاق وإن كانت مظلمة ، وإذا تنسمت ريحها أحسست دبيب السعادة وإن كان الشقاء يكتنفني . وإذا حدثتها عرفت البهجة وإن كنت غارقاً في همومي . وإذا سمعت صوتها وقع عندي موقع البلسم على القرحة الدامية . وإني لأرق للنساء من أجلها ، وأخوض الحروب لأنني أحمي قومها ، وأطلب الغزو لا أطلب منه إلا أن أفوز ببسمة من رضاها ، وأبذل ما يحرص عليه الرجال لأنني لا أعرف شيئاً أحرص عليه غير محبتها . فهي عندي غاية حياتي .

وبعد ذلك عاد صوت الغناء فجأة وحمله النسيم كما كان يحمله من قبل متدرجاً متدفقاً فقال عنترة :

— اسمع يا شيبوب فإنها تغني .

وأصاخ بسمعه لحظات ثم قام خفيفاً وقال مبتهجاً :

— ألا تحب أن نقرب من مكانها لنسمع ؟

ثم جذب أخاه من يده واتجها نحو الخباء فلما اقتربا حتى استطاعا تبين اللفظ وقف عنترة فجأة وقال في صيحة مكتومة :

ـ أما تسمع يا شيبوب ؟ إنها تغني بشعري . إنها تغني بشعري .

ثم اندفع نحو الخيام وكان الفتيات والنساء وسطها يجلسن فى حلقة حول النار فوقف فى الظلام يسمع وذهب شيبوب نحو خيمته وفى قلبه قبضة يأس من ضلال أخيه .

٣

كان الصباح يضىء بأنوار الشمس الباسمة فى ذلك الربيع ، وكانت السحب تزين السماء بقطع بيضاء كأنها قطيع من وعول نجد العصماء ، وكانت الأرض لا تزال رطبة من أثر المطر ، والعرار يبسم بنوره الأبيض بين حشائش المرج الأخضر ، وقطعان الابل تسرح هادئة تحت نظر رعاتها . والنسيم الوديع يهب على وجه عنترة وهو واقف على ظهر فرسه الذى يعدو تحته بغير رسن . وكان مقيما فى ذلك المرج مع سرح سيده شداد متنزهاً تلك الأيام ليمتع نفسه بالانطلاق فى صفاء البادية الباسمة قبل أن يقبل الصيف بقيظه ويصوح العشب ويذبل الزهر . وطالت غيبته عن الحى وكان يمنى نفسه أن يعود إليه بعد حين فيرى عبلة وينعم بحديثها ويتنفس من النسيم الذى تتنفس منه قبل أن يخرج إلى منتجعات الكلأ إذا حمى حر الصيف .

ولـكن زائراً أتى إليه فى ذلك اليوم فقطع عليه متعته ، فما علت الشمس حتى رأى فارساً يسرع مقبلا نحوه ، وتبينه بعد قليل فإذا هو أخوه شيبوب . وكان عنترة لا يتوقع مجيئه فأسرع ليلقاه وهو واقف على ظهر فرسه كما كان يحب دائماً أن يركب إذ يرعى الإبل فى البر الفسيح .

ولما صار قريباً منه ناداه فى لهفة :

— مرحباً بك يا شيبوب !

ثم وثب عن ظهر الفرس قائلا :

— خيراً ما جاء بك !

فقال شيبوب ضاحكا :

— إنما جئت لأراك .

فنظر إليه عنترة فى شك وقال :

— إن وراءك لأمراً .

فقال شيبوب باسماً .

— انك لتحس ما فى نفسى قبل أن أنطق . صدقت فقد جئت إليك بحديث .

فانتظره عنترة أن يبدأ ومضى شيبوب قائلا :

— كان الحى بالأمس يموج بفرسان عبس .

فقال عنترة فى صيحة مكتومة :

— وماذا دهى الحى ؟

فقال شيبوب مبادراً :

— لم يكن شيء سوى وليمة . وليمة مالك لعمارة بن زياد .

فصاح عنترة فى صوت مخنوق .

— وما بال عمارة ويلك !

فقال شيبوب فى هدوء : إنه خطب عبلة !

وكأن شيبوب ألقم أخاه حجراً بهذه الكلمة فلم ينطق بجواب بل أطرق ساهما وجعل يخرق الأرض برمحه . فقال له شيبوب :

— كنت من قبل أحدثك فى خفة وفكاهة لأننى أعرف كبرياءك ولا أحب أن أثيرها . ولكنى اليوم لا أرى مجالا لخفة ولا فكاهة . وأحب أن أحدثك حديثاً يقطر جداً .

فنظر إليه عنترة وهو يكظم حنقه واستمر شيبوب فقال :

— هذا مالك بن قراد يختار زوجاً لابنته ، وهو من هؤلاء العرب الذين لا مفر لهم من أن ينظروا إلى الناس بأعينهم . وقد

أردت أن أسعى إليك بهذا النبأ قبل غيرى حتى لا تركب الشطط لو بلغك من سواى .

فصاح عنترة :

— وأى شطط تعنى ؟

فقال شيبوب : لقد عرفت أنك سوف تكره هذا النبأ وأنك سوف تحقد وسوف تثور . ولكنى أعيد عليك انك تخدع نفسك ياابن امى . فهل لك أن تفكر فى أمرك وتحكم عقلك ؟

فأطرق عنترة حيناً وهو حزين ثم قال :

— أنت تريدأن أحكم عقلى وأن أفكر فى أمرى . تريدأن أعرف انى عنترة العبد الذى لا يليق به ان يتطلع إلى عبلة .

فقال شيبوب فى عطف : إنك بغيرشك فارس عبس ، وأنت جدير بأن تكون من خير سادتها . ولكن قضاءك قد ظلمك ولست بأول رجل ظلمته الحياة .

فانتفض عنترة وقال :

— وما لى أرضى بظلم الحياة يا شيبوب ؟ وما الذى يقيدنى حتى أقيم على الخسف وأرضى بأن أبقى عبداً فى عبس ؟ ما الذى يحملنى على أن أحكم عقلك أنت فى أمرى ؟ ليس هذا حكم عقلى

أنا يا شيبوب ، بل هو حكمك . أما أنا فانى لا أرضى لنفسى أن أكون هناك .

فقال شيبوب هادئاً :

— وماذا تملك يا أخى ؟ هل تملك أن تحجر على مالك حتى لا يزوج ابنته بمن شاء ؟

فصاح عنترة :

— لست أريد ذلك ياشيبوب، ولكنى أحب عبلة ولا أستطيع أن أراها زوجاً لغيرى .

فقال شيبوب : إذن فحدثنى ماذا أنت فاعل وقد علمت نبأ خطبتها .

فقال عنترة فى حرارة : لست أدرى بم أحدثك يا شيبوب . فأنت تذكرنى بكل آلامى وكل شقائى. أعلم أننى فى نظر هؤلاء لا أزيد على أن أكون عبداً، ولا أستطيع أن أمحو صورتى التى تقع فى عيونهم وفى قلوبهم . ولكنى أملك شيئاً واحداً . أملك نفسى التى لا ترضى . وسأكون فى المكان الذى أرضاه وإن كان ذلك قسراً. إنك تحدثنى عن مالك. فلم لا تحدثنى عن عبلة ياشيبوب ؟ إنك لم تسمع نجواها كما سمعتها ، ولم تعرف حقيقة نفسها كما

عرفتها. فلا تواجهنى بهؤلاء فلست أعرف منهم أحداً و إنما أحب عبلة وأعرفها .

فقال شيبوب فى عناد :

— أتحسب مالكا يزوج ابنته لك ويدع عمارة بن زيادة ؟ ولو كان أبو عبلة غير مالك أتحسب أنه يفعل مثل هذا ؟ إنك لن تجد غيرى يحدثك بمثل قولى ولكنى لا أحب أن أكتم عنك نأمه من نفسى .

وكان عنترة يحاول أن يمسك غضبه . ولمح شيبوب علامات ذلك الصراع بينه و بين نفسه فقال له فى عطف :

— لا تحنق على لما أقول يا أخى . فوحق مناة أننى أشد حرصاً عليك منى على نفسى . ولو كان الأمر لى لعرفت أن أقدرك قدرك فأنت أكرم من كل هؤلاء وأشمهم نفساً . و إنك لحامى حماهم وسيد فرسانهم وأنت أجل عندى من أحسنهم .

فقال عنترة وقد ألانه عطف أخيه :

— لست أشك فى مودتك وحرصك على خيرى . ولقد صدقت إذ قلت إن مالكا لا يلام على رضاه بعمارة ، ولو كنت مكانه لما رضيت إلا بما يرضى . ولكن ما بال قلبى وعبلة ؟

إننى أحبها ، ولا أقدر أن أحيا لغيرها . ولو ذهبت لغيرى لكان فى ذلك قتلى . فليس لى إلا أن أركب الوعر وأن أقدم على كل خطر ، فليس فى كل ذلك إلا الموت وهو ما ينتظرنى .

وصمت لحظة ثم قال :

— وما بال شداد يأبى علىّ كرامتى ؟ لقد علمت أنه أبى . قالت زبيبة ذلك وهى صادقة لم أعتد منها كذبا . فوحق مناة لأعودن إليها فأسألها . فاذا قالت ذلك فانى عائد إليه لأنتصف منه وإن كان فى ذلك هلاكى .

فصمت شيبوب لحظة ثم قال :

— أو تحسب أنه ينصفك ؟

فصاح عنترة :

— لئن لم ينصفنى وأنا ولده لكان لى ظالماً .

ثم أخذ ينكت الرمل برمحه فى حنق .

فقال شيبوب : أراك لا تدع هذا الوهم وإن كلفك ركوب كل وعر .

فقال عنترة فى قسوة : إذا كنت بين قوم لا ينظر كل منهم إلا إلى نفسه فلا حرج على أن أنظر إلى نفسى .

إن وهؤلاء جميعاً يدعوننى إذا اشتدت حولهم الكروب ، و يلقون إلىّ بالسيف لأذب به عنهم وأحمى حرمهم . فلأحار بنهم بهذا السيف انتصافا لنفسى . لأحار بن شداداً إذا ضن على باسمى ، ولأحار بن مالكا إذا وقف بينى و بين حبى ، ولأحار بن عمارة إذا تجرأ على أن يسلبنى حياتى . لأحار بن لأحار بن لأحار بن ! و إلا كنت فى الحق جديراً بأن أكون عبداً .

هلم يا شيبوب إلى الحى فانى لا أطيق المقام هنا .

ووثب على ظهر فرسه ولم يستطع شيبوب أن يرده عن عزمه فقد انطلق به جواده الأبجر وأثار الغبار وراءه فلم يجد شيبوب بدأ من أن يركب و يلحق به عائداً إلى منازل عبس .

٤

دخل عنترة إلى بيت أمه أول شىء بعد عودته إلى الحلة ، وكانت زبيبة منصرفة إلى غزلها وهى ساهمه . فلما رأت عنترة داخلا وثبت قائمة وقالت له وهى تفتح له ذراعيها :

— مرحباً بك يا ولدى . متى جئت ؟

فلم يجب عنترة بل ذهب إلى جانب من الخباء فرمى رمحه

وسيفه وجلس على فروة والحزن يبدو فى معالم وجهه .

فقالت له زبيبة :

— إنك حزين ياولدى ، ولعلى أعرف سبب حزنك . بل لعلى قد عرفت سبب عودتك التى لم أكن أتوقعها .

فنظر عنترة إليها فاتراً فى حنق وقال :

— وماذا يجدينى أن أحزن أو أن تعرفى سبب حزنى . لقد كان أولى بك لو عرفت أنك أنت السبب فى شقائى .

فتحرك وجه الأم وفارت الدموع فى عينيها وقالت :

— أى ولدى الحبيب فداك نفسى ، ولو استطعت أن أذهب عنك الحزن بفقد عينى لكان أحب شىء لدى أن أفقد عينى . ولو قدرت على أبذل حياتى لكى أهب لك السعادة لبذلتها راضية .

فخضع عنترة وأطرق حينا ثم قال لها :

لن يجدينى ذلك شيئا أيتها الأم التى جنت على . ولقد جئت إليك لكى أسألك مرة أخرى أن تصدقينى حديثك .

فقالت زبيبة :

— سلنى ما بدا لك يا ولدى فأنا لا أحب أن أكذبك .

فقال عنترة فى مرارة :

— لست أحتمل بعد اليوم أن أعيش فى دنيا تحيط بى فيها هذه الأكاذيب ولا أفرقها عنى . إذن فتعسا لهذا السيف الذى أحارب به أعداء عبس لأنه يكون سيفاً أجيراً .

فقالت زبيبة هادئة :

لقد عرفت يا عنترة أنى لا أكذب ، ولو أردت أن أكذب على الناس ما كذبت على ولدى . أتحسب أننى أعرف أمراً أخفيه عنك ؟ لقد طالما أخبرتك بما سمعت من عبلة ومن أمها وما سمعت من نساء عبس ومن امرأة أبيك سمية .

فصاح بها عنترة فى وحشية :

— تقولين امرأة أبى ؟ أما هى امرأة شداد ؟

فقالت زبيبة : هى سمية امرأة أبيك شداد .

فصاح عنترة :

إنك تكذبين يا امرأة .

فنزعت زبيبة من تحول ابنها ورمت بالمغزل من يدها فى غضبة مكتومة ، وبسطت يديها نحوه وعيناها معلقتان فى وجهه وقالت :

— أي عنترة ولدي ! إني لا أزال أذكرك طفلا وأنت تحبو مرحاً ضاحكا تعبث بالكلاب والحملان . وأذكرك صبياً تجبذ فصيل الناقة كأنك قط تداعب فأراً . وأذكرك فتى تهز الحربة كما كان خالك وجدك يهزانها . نعم خالك وجدك أخي وأبي . هؤلاء الذين عرفوني وعرفتهم ولم يقولوا لي يوماً كما تقول لي « يا مرأة » . فإذا ما كبرت يا ولدي وصرت شاباً فارساً أراك تبعد عني وتطرحني وتخاطبني هكذا « يا مرأة » .

ثم وضعت رأسها بين كفيها وأخذت تبكي .

فلان عنترة وقال يستعطفها :

— إن قلبي يتمزق والغيظ ينفجر مني .

فقالت زبيبة :

— إنك يا عنترة تدمي قلبي إذ أراك تنظر إليّ كما ينظر هؤلاء ، كما ينظر أبوك وأعمامك وأبناء أعمامك إذ يقولون لي « قومي يا زبيبة إلى هذا القعب فاملئيه لبناً أو قومي إلى هذه الشاة فاحلبيها » وما كان ينبغي لك أن تكون منهم فلست زبيبة الأمة أمام نفسي . إني أنا الحرة الحبشية (تانا) ابنة (ميجو) ولن أكون سوى الحرة (تانا) ابنة ميجو .

وكان عنترة يسمع قولها مضطرباً ويزأر زئيراً مكتوماً ، ثم قال فى شبه صيحة :

— ألست أنت التى أتيت بى إلى الحياة لكى يصفعنى كل من يلقانى بقوله « يابن الزنا ؟ » وحق مناة لو كنت حرة . . . .

وما كاد يتم قوله حتى صاحت زبيبة فى حنق :

— ويلك ياعنترة ! لا تنطق بهذا القول أمامى . إننى أمقت قومك وما يقولون وأمقت آلهتهم التى يقسمون بها . لا تنطق بهذا القسم أمامى فإنى عرفت ديناً غير هذا الدين ، واسماً أحب إلىّ من هذا الإسم ، ولو خيرت بين الحياة والمسيح ما أحببت الحياة .

ففتح عنترة عينيه فى دهشة ثم صاح :

— وما هذا المسيح الذى تهرفين به ؟ أما منعك من أن تأتى بالولد لتقذفى به فى المهانة بين هؤلاء الذين تقولين أنك تمقتينهم ؟ إننى أطعن أعداءهم وأعف عن حرمهم وأتكبر أن أخاصم أحداً فى اقتسام غنائمهم ، وهم يتقاتلون عليها ، ومع ذلك فأنا عندهم العبد ابن زبيبة .

ثم اتقد غضبه وانفلت لسانه من زمامه فقال فى وحشية :

— أمسكى أيتها المرأة دموعك التى تسحر قلبى . ودعينى وما أريد فأجيبى سؤالى . أأنا ابن شداد حقاً ؟
وإنى أعيد قسمى بمناه لكى املأ قلبك غيظاً وحقداً وغماً كما أتيت بى إلى حياة لا أجد فيها إلا غيظاً وحقداً وغماً .
أقسم بمناة لكى أجرعك الغصص ائن لم تصدقينى لأضمن هذا السيف فى قلبك ثم أديره بعد ذلك إلى قلبى . أأنا ابن شداد حقاً ؟
وكانت زبيبة تسمع قوله وهى مكبة على يديها تبكى، ثم قالت وهى تنشج :
أما قلت لك إنك ابنه ؟ أما قلت لك أنت ابن شداد ؟ أما أقسمت لك بالمسيح يوماً أنك من صلبه. انك ابن شداد ويكذب من يقول غيرها .
فصاح عنترة مزمجراً :
— ألا كفى عن ذكر اسمه فانه أشد الأسماء كراهة عندى. كفى عنه فانك كلما ذكرت اسمه أحسست مثل وقع السياط على ظهرى. وأقسم بمناة لئن كان أبى لأحملنه على أن ينسبنى إلى نفسه، وإلا كان لى معه شأن تتحدث به قبائل العرب فى نواديها .
وسأضرب فى الأرض حيث تقذف بي ، وسأصارع الأسود

وأنتزع منها فرائسها ، وسأقطع السبيل على كل عابر وأسلب الأموال من كل مالك ، ولن أستقر حتى ألقى منيتى كما يلقاها الكلب العقور أو النمر الثائر .

فتخاذلت زبيبة ومدت يديها فى تضرع وقالت :

— إنه أبوك يا ولدى ، وقد طالما حدثتك بقصته وأنت تنكر ولا تصدق . إننى أذكر يوم رأيته كأنه كان بالأمس القريب فاسمع حديثى وصدقنى : كنت مع الركب أنا ومن معى من نساء وأطفال لا نكاد نرى ما أمامنا من البكاء . فقد جئنا إلى هذه الأرض مع قوم خطفونا كما تخطف الأنعام . وكانوا يلقون إلينا فى الطريق بقطع من العظام وفضلات من الطعام فلا نجد لها شهوة والجوع يقرض أحشاءنا ، حتى كاد الموت يأتى علينا . وكانت جثث الموتى تلقى على جانب الطريق كما تلقى جيف الكلاب ولا نجد لأنفسنا حيلة إلا البكاء .

وكان أخوك شيبوب لا يزال طفلا ، وكان جرير ابنى لا يزيد على عشر سنوات . أواه ! إننى لا أملك نفسى كلما تذكرت كيف كانت رجلاه الصغيرتان تدميان من السير فوق الحجارة ونحن نسير فى تلك الصحراء المهلكة لا نعرف لها سبيلا .

وأخيراً هبط علينا أبوك شداد فى جماعة من عبس جاءوا ليسلبوا ركب الطغاة الأنذال الذين جاءوا بنا. وكنا نحن الركب والغنيمة. ولكن شداداً كان بنا براً كريماً وكان بى حفياً وبطفلى رحيماً. فاختارنى فكنت له أمة وكان ابناى له عبدين . ولست ألومه على ذلك فتلك عادة هؤلاء العرب قومك يا عنترة .

فنظر إليها عنترة وقد هدأت ثائرته وقال ساخراً :

— أهم حقاً قومى ؟

فقالت زبيبة : — هم قومك ياولدى ولا أكذبك شيئاً .

إنى أرضى بالرق لأننى لا أرى لى فى الحياة أرباً سوى أن أراكم أمامى .

وسمع عنترة قولها شاخصاً ببصره إليها حتى إذا ما فرغت مدت يديها واقتربت منه فوضعت يمينها على رأسه تمسحه فى عطف وتهتفت بالبكاء . فخضع عنترة لها ووثبت من عينه دمعة بدر إليها فمسحها ثم تخلص منها برفق وقال بصوت ضعيف :

— لا عليك يا أماه فإنى قسوت عليك . ولقد عطفت قلبى على هذا الرجل بعد وصفك فإنى أحس له رقة . وسأمضى إليه

لأحدثه فى أمرى وأمرك . فلست أرضى أن أكون من صلبه ثم أبقى فى بنى عبس رقيقاً .

ثم وثب واقفاً ووقفت أمه تتعلق به ، وقالت :

— لا تفعل ياولدى ، لا تفعل ذلك أبداً . إنه لن يجيبك إلا بما يجيب به العربى عبده . إنك عبده لأنك منى . تريث فى الأمر حتى يقضى الله قضاءه ولا تيأس من رحمته . فإنى أحس أنك مدرك ما تبغى .

فقال عنترة فى صرامة :

— ذرينى أذهب إليه فإنى لن أثير قلبه. سوف أخضع له فى الحديث لعل قلبه يلين لى. ولست آيساً منه فإنى ألمح فيه أحياناً رقة ومحبة .

فتعلقت به زبيبه مرة أخرى وقالت :

— إنه لن يرضى خوفاً من قومك أن يعيروه بك .

فقال عنترة فى عناد :

— لن أقعد عن ذلك وإن كلفنى حياتى . فإما ان أكون ابنه وإما أن أهيم على وجهى فى الأرض الواسعة ابتغاء حريتى.

فقالت زبيبه : تريث يا ولدى بحق .... بماذا أقسم عليك حتى تطيعنى ؟

فنظر عنترة إلى وجه أمه جامداً وقال :

— لن أنفك أطلب حقى حتى أبلغه يا أمى . وَلن أحمل هذه الحياة و إن كان فى ذلك تحطيم قلبك وقلبى .

ثم تخاذل وجلس على حجر عند مدخل البيت ووضع رأسه بين كفيه وغاب فى صمته حيناً . وكان يردد فى إطراقه أنغاماً خافتة ويهتز فى أثناء ذلك اهتزازاً شديداً .

فاقتربت أمه منـه وجعلت تمسح رأسه بيدها وهى صامتة حزينة ، حتى مضت ساعة ثم رفع رأسه وجعل يتغنى بأهزيج من شعره وأمه تنظر إليه فى رقة وتستمع إلى غنائه حتى انتهى من إنشاده فقالت له :

— إذن فأنت مقيم هاهنا . أتحتمل الحياة فى أرض لا تقيم عبلة فيها ؟

فصاح عنترة : بل لا أتردد فى تحطم هذا القلب الذى يتعلق بها وأى جدوى فى بقائى هنا ، لست إلاّ عبداً ؟ اننى عند ذلك

لا أزيد على أن أكون مثل الكلب الذى يتطلع إلى النجم وينبحه وهو أذل الأحياء .

فقالت زبيبة ضارعة :

— أما تترفق بنفسك ياولدى ؟

فنظر إليها عنترة نظرة سريعة ثم ذهب عنها مسرعاً يدمدم فى وحشية :

— سوف أذهب لأنزع عن نفسى عارها .

ولم يلبث أن غاب بين البيوت وأهوت زبيبة على الأرض متهالكة تنظر فى أعقابه والدمع يملأ عينيها .

٥

كان شداد بن قراد فى خيمته يغفى إغفاءته بعد الغداء عند ما ذهب عنترة يطلب أن يراه . وكانت امرأته سمية جالسة مع مروة ابنة شداد تتحدثان وهما تغزلان الصوف بعد أن فرغتا من خدمة الشيخ الصارم . فلما أقبل عنترة نظرت إليه سمية وقالت فى دهشة :

— هذا عنترة هنا ؟

فنظرت إليه مروة وقالت هامسة :

— لقد طالت غيبته عن عبلة فحركه شوقه .

فقالت سمية عابسة :

— صه يا مروة ! أما تدعين عنفك عليه ؟ أما رأيت كيف قسا عليه أبوك من أجل مثل هذه الكلمة ؟

واقترب عنترة منهما وجلس وهو صامت فقالت له سمية :

— مرحباً بك يا عنترة ! لقد طالت غيبتك .

فقال عنترة فى هدوء : جئت لأرى سيدى . أهو هنا ؟

فقالت سمية ناظرة إلى الخيمة .

— إنه هناك على عادته فى مثل هذه الساعة . فهل تنتظره ؟

فقالت مروة فى خبث وهى مستمرة فى غزلها :

ـ لقد سهر بالأمس فى دار عمى مالك وأظنه لا يصحو اليوم إلا مساء .

فقال عنترة ناظراً إليها : وأنت أما كنت فى دار عمك ؟ أما كنتم جميعاً فى دار مالك ؟ أما كنتم جميعاً تحيون آل زياد ؟

فقالت مروة : ولو كنت معنا لما فاتك أن تكون معنا .

فنظرت اليها سمية خفية فى شىء من الحنق وأجابها عنترة :

— لقد تعودت يا مروة أن أذهب حيث تذهبين أنت وسيدتى هذه سمية . أليس هذا واجب عبد شداد ؟

فضحكت مروة وقالت ممعنة فى خبثها :

— كما تعودت أن تحمل اللبن إلى عبلة كل صباح لتشرب منه أول الناس .

فصاحت بها سمية قائلة :

— أما تمسكين عن هذرك أيتها الحمقاء ؟

فقال عنترة هادئاً :

— لست أحمل اللبن لعبلة وحدها . إنما أنا عبدكم يا مروة فأنا لا أصنع إلا ما يجب على العبد أن يصنع .

فلم تبال مروة غضب سمية وقالت ضاحكة :

— أما قلت لنا عند الماء إنك عبد عبلة ؟ انما انت عبدعبلة.

فقال عنترة : اذكر ذلك يا مروة فهل أغضبك قولى ؟ إنك ابنة شداد ولا حاجة بى أن أقول للناس إنك سيدتى، فهم يعرفون اننى عبد شداد .

فقالت سمية فى غضب : الا حسبك يا مروة . إنك تعرفين

أن عنترة فارسنا وحامينا ، وهو ابن زبيبة التى تحبك وتحنو عليك .

فقال عنترة باسماً : ذريها تعبث بى يا سيدتى . إنها تعرف مودتى لها وحرصى على رضائها ، وان أقسى كلماتها عندى أحب من حديث سواها .

فقالت مروة فى عناد . لو سمعتك عبلة لأغضبها ذلك . وأنت لا تجرؤ على مثل هذا القول لو كانت عبلة تسمع . ألا تذكر الشعر الذى أنشدته ؟

فقال عنترة فى شىء من الارتباك :

ــ إننى أتغنى به صباحاً ومساء .

فبادرت مروة ضاحكة وقالت :

ــ ولكنك لا تنشد إلا إذا كانت عبلة حاضرة .

فنظر اليها عنترة وقال فى شىء من الحنق :

ــ لعلك تريدين أن تقولى اننى أحبها . ألا فاعلمى يا مروة أننى أحبها . واننى أقول شعرى لها . ولقد كنت أكفكف من شجونى واكتم ثائرة وجدى حذراً أن يتحدث أهل الفضول عنها . ولكنى اليوم لا أبالى . فها هو ذا عمارة يخطبها وأنتم

جميعاً تذهبون إلى وليمته لتخدموا أهله ، وأنا أرعى إبل شداد فى البر وحدى . فلتتحدثى ولتتحدث فتيات عبس جميعا اننى أحبها ، وليعرف عمارة بن زياد أن عبلة عندى فى مكان الروح واننى سأقضى سائر حياتى أتغنى بحبها .

وكان صوت عنترة قد علا فقالت سمية تحاول تهدئته :

— لا تغضبك هذه الحمقاء يا عنترة فما هى الا الغيرة تدفعها .

فصاحت مروة : — أتدفعنى الغيرة من عبلة ؟ وهل هى خير منى ؟

فقال عنترة وقد عاد الى هدوئه :

ليس يسرنى وحق مناة أن تكون مروة زوجة لعمارة ابن زياد . ذلك الفتى المعجب بنفسه الذى ينظر الى صورة وجهه فى زير الماء كما يفعل النساء .

فقالت مروة فى غضب وعتب .

— ومن قال لك اننى أرضى زواجه ؟

وعند ذلك أطل شداد من خيمته ونظر حوله وهو يتمطى قائلا : ما هذا الصراخ يا هؤلاء ؟

ثم وقع نظره على عنترة فقال فى تودد :

— أهذا انت يا عنترة ؟

واتجه اليه عنترة قائلا :

— كنت انتظرك يا سيدى فهل لى ان أحدثك حديثاً ؟

فقال شداد وهو يسير خارجا :

— وانني كذلك أحب أن أحدثك . وقد كنت على عزم أن أبحث فى طلبك .

وسارا معاً الى جانب من الشعب فانتحيا فيه جانباً عند مهبط السيل، وجلس شداد على قطعة صخر ملساء وجلس عنترة عند قدميه ووضع رمحه تحت رجليه .

وقال شداد : لعلك سمعت بما اعتزمت عليه عبس من غزوه طيىء .

فقال عنترة مطرقاً : كنت فى مراعى ابلك ولم أسمع إلا بوليمة أخيك مالك .

ففطن شداد إلى ما تحت كلمته، وقال متحاشياً الخوض فى ذلك الحديث : أكنت تحب أن تفضى إلى بقول ؟ ابدأ أنت بحديثك يا عنترة .

فقال عنترة وهو يغالب ما يثور فى نفسه :

— اننى لا أستطيع يا سيدى أن أنكر فضلك على . أنت فارس عبس وشيخها وأنت ملاذ الخائف ومطعم الجائع ومكرم الضيف. وقد حدثتنى أمى عنك أحاديث طويلة منذ كنت طفلا.

فقال شداد عابساً :

— قل ما تريد فانى سامع .

فقال عنترة فى حرارة :

حدثتنى أمى عن رحمتك بها وبرك بأبنائها ولكنها تقول لى قولا لم أسمعه منك أنت يا سيدى .

فقال شداد فى صرامه : قالت لك إنك ولدى ؟

فقال عنترة ثابتاً :— قالت لى ذلك منذ كنت طفلا .

كنت إذا لعبت مع أطفال الحى وغاضبتهم سبونى بأمى وقالوا لى أقوالا لم أفهمها ، فكنت أنتقم لنفسى وأضربهم فلا يزيدون الا جرأة على ويجتمعون فى حلقة يعيروننى ويسخرون منى . فاذا ضقت بذلك ذهبت الى أمى فشكوت لها وسألتها عن أبى لكى أفاخرهم به كما يفاخروننى بآبائهم ولكنها كانت لا تزيد على أن تبكى ثم قالت لى يوماً اننى ابنك ، فأحسست الكبرياء تملأ قلبى. ولكن وا أسفاه ! كنت أذهب

اليك ولا اجرؤ على سؤالك ، ولم أسمعك يوما تناديني قائلا « يا ولدى »

فقال شداد فى جمود : وما ذا تريد بقولك هذا ؟

فأجاب عنترة : لست اريد الا ما يريده المرء من ابيه إذا كان اباه حقاً .

فقال شداد : الست اكرم مكانك ياعنترة ؟ ألست ادخلك على اهلى ؟ألست أركبك معى إذا سرت الى الغزاة ؟ألست أناجيك كلما اعتزمت مع قومى أمراً ؟ انني ادعوك الى حماية الحمى اذا طرق الطارق ؟ ألست تأكل معى وتجلس حيث أجلس مع سادة عبس وتتحدث فى مجلسى وأنصرك اذا ظلمت وأدفع عنك اذا ظُلمت ؟ فماذا تبتغى منى بعد ذلك اذا كنت أباك حقاً ؟

فقال عنترة فى رقة : لست أنكر فضلك فانى اذن لجحود . إنك لتكرمنى ولا تجعلنى فى مكان هؤلاء العبيد الذين يرعون إبلك معى . وقد كنت تملك أن تردنى اليهم إذا شئت ، وتذل تلك النفس التى تقول أمى إننى ورثتها منك . ألا تقول لى اننى ورثت هذه النفس منك ؟ قل لى هذه الكلمة يا أبى ، بحق سيفك ورمحك حتى أسمعها من بين شفتيك أنت .

فقال شداد متبرماً : إنك تلج لجاجة لا أحمدها .

فنظر اليه عنترة فى حيرة ، وقال : لست أحب اللجاجة يا سيدى . ولكنى لا أحب لك إذا كنت أبى أن تنكرنى . إنك إذن رجل تسرف فى نفسك وفى تلك البضع التى تخرج من صلبك .

فقال شداد مغضباً : حسبك أيها العبد أمسك لسانك .

فقام عنترة ومد يديه نحوه ضارعا ثم قال :

أيها البطل لست أحب أن أغضبك . ولكنى لست أرضى لك أن تقذف بى بعيداً عنك إذا كنت من دمك . ان لى فى الحياة حقاً ، ولكنى أجد الحياة تتنكر لى . كيف بى أن أعيش فى قيد الرق وما الحياة تستحق أن أحياها إذا هى خلت من الحرية . إننى أحب الحرية لأننى أحب الحياة . وأحب أن أعيش كالناس أقول « نعم » حيناً وأقول « لا » حيناً إذا بدا لى أن أقول « نعم » أو « لا » . أحب أن أكون مثلهم فى ميزان الأحرار وأعاشرهم وأعاملهم على أننى أحد بنى عبس . أترضى لنفسك أيها البطل أن تعيش عبداً ؟ أما كنت تؤثر أن تجاهد فى سبيل حريتك حتى تفوز بها أو تخر صريعاً فى جهادك لها ؟

ولقد كنت أرضى أن أكون عبداً لو كانت لى النفس التى ترضى بذلك ؛ فاذا كنت أبى فان دمك الحر هو الذى يثور فى قلبي .

فلان شداد بعض اللين وقال :

— إنك تجرعنى الغيظ بما تلقيه علىّ من هذا القول الذى ينطلق إلى أذنى كأنه جمر الغضا .

فقال عنترة فى رقة :

— قلت لك إنى لا أحب أن أغضبك فلا تغضب علىّ إذا دفعنى يأسى إلى مواجهتك . لست أكره أن توقع بى فتذهب عنى تلك الشجون التى تؤرقنى فى ليلى وتذلنى فى نهارى وتجعل حياتى بغيضة إلى نفسى . لست أكره أن أفارق هذه الحياة على يديك فأخلص من هذه السبة التى يرددها الناس كلما وقفت بينهم عند أول غضبة يغضبونها . فهم إذا عجزوا عن مفاخرتى بأنفسهم فخروا علىّ بآبائهم وقالوا لى يا ابن الزنا ولو عرفت أبى لفاخرتهم به وأسندت إليه ظهرى . حتى أنت يا شداد تقذفنى بحمك إذا غضبت وتدعونى عبداً كما فعلت الآن معى . بل إنك لتسب أمى وتطعن فى عرضها ولقد كنت جديراً بأن تكون

أبعد الناس عن إذلالى إذا كنت أبى . فهل تكذب أمى إذ تقول لى إننى منك ؟ أم هى تعلم أنها كانت فى كنفك ثم اختانتك فى ولادتى ؟

فصاح شداد فى غيظ : أما قلت لك أمسك ؟

فمضى عنترة فى عناد :

لك أن تنكر أنك أبى إذا كنت تعلم أننى لست لك ولداً . ولو فعلت ذلك لوجدت عنك مندوحة ياسيدى . فإنى أقدر على أن أضع ذباب السيف فى صدرى حتى يخرج من ظهرى وأخلص من هذه الحياة عامداً ، فلا تنالنى تلك الوصمات التى يلطخ بها جبينى . ولكنى لا أقدر على أن أدعك وأنت لاتنكر أبوتى . فلا بد لك من إحدى خصلتين : إما أن تقرّ بأبوتى وإما أن تنكرها .

وكان شداد مطرقاً فى أثناء هـذا الحديث متردداً فنظر إليه عنترة وزاد طمعه فى لينه ومضى قائلاً :

— وإنى فوق ذلك أقدر على أن أذهب عن هذه الأرض فلا أقيم في ديار لا أعرف فيها إلا بأننى العبد المسخر الذى يقاتل

من أجل سادته ، ويغنم لهم الغنائم ، ويؤجر على حمايتهم بالطعام والشراب والجلوس فى مجالسهم .

لست أرضى لنفسى أن أكون عبداً لك تملكنى كما تملك هذه الإبل وهذه الخيل . وإننى قادر على أن أمنع نفسى وأفوز بحريتى لأننى قادر على أن أمنع حرمكم وأذود عن حريتكم . هذا سيفى يحارب فى سبيل مجدكم ، وإنه لسيف عاق إذا كان يخدمكم ويتخلى عنى .

فرفع شداد رأسه بغتة وقال :

— أتمنُّ علينا بحمايتك أيها الشقى ؟

فنظر إليه عنترة ثابتاً وقال :

— لست أمن عليك ولا على أحد بحمايتى . ولكنى أقول الحق الذى لا تستطيع أنت أن تنكره . إننى أغزو وأتقدم الصفوف لأقتحم العدو فى صدرها . وأجرؤ على لقاء الموت إذا نكص كل فارس عن لقائه . وأغنم الغنائم لكى تقسموها فيما بينكم فإذا مننتم علىّ بنصف سهم رأيتم أن هذا إيثار لى واعتراف بحقى . وإنى لأبذل مافى يدى تكبراً عن المال، وأعف عن الحرم تسامياً عن الدنايا . ولست أريد بهذا القول إلا الحق، فإذا كان

هذا يغضبك منى فلست بعد هذا أذكره . وحسبى أن أباعد
بينى و بينكم فلا أكلفكم من أمرى مشقة . ولكنى أحب منك
خصلة لا أعدوها حتى تنكر أبوتى. فإذا كنت أبى فألحقنى بنسبك
كى أعرف نفسى ويعرف الناس حقيقتى . و إذا كنت تعلم غير
ذلك فاصرفنى بكلمة فلا أعود إلى خطابك ولا أصدع أذنيك
بكلمة منى . ولكنك قد زعمت للناس يوماً أنك أبى . ألا
تذكر يوم اختلف قومك علىّ منذ كنت طفلا وأبيت إلا أن
تحوزنى ؟ ألم تقل لهم عند ذلك إنك أبى ؟ أما كدت تقاتل
بناء عمك من بنى عبس عند ما أرادوا أن يجعلونى فى بعض
نصيبهم من الغنيمة ؟ لقد قالت لى زبيبة هذه القصة ، فكذبها
إذا شئت ، بل كذب نفسك إذا استطعت أن تقول كذباً .

وما كاد شداد يسمع هذا حتى بلغ به الغيظ مبلغه ، فلمس
مقبض سيفه وقال فى صيحة عنيفة وهو يثب قائماً :

— وحق مناة واللات والعزى ما صبرت على أحد صبرى عليك
أيها العبد الشقى . ولست أدرى ما الذى يمنعنى من سفك دمك
أيها العاق الجاحد وأنت تقرعنى منذ اليوم بقولك وتجبهنى بسبابك؟

إنها لنقيصة أحسها فى نفسى أن أرق لك كلما هممت بأن أغمد هذا السيف فى أحشائك .

فنزع عنترة سيفه من حمائله ورماه بعيداً ثم وقف وفتح صدره الواسع وقال بصوت أجش :

— أظهر ما يثور فى قلبك ولا تكتم غضبك ، فإنك إن فعلت خففت عنى ثقل ما أحمل من حياتى . إنى أحرضك على قتلى فلست أريد أن أحيا تلك الحياة التى تريدنى عليها . اقتلنى وأنت هادىء مطمئن النفس لأنك تريحنى من شقائى .

فأدار شداد عينيه وعاد إلى الصخرة فجلس عليها صامتاً وهو يلهث مما فى صدره ثم قال بصوت فيه رنة العتاب :

— أنت تعلم أن هذا الأمر لا أملكه وحدى .

فصاح عنترة كمن أحس بالنجاة :

— إذن فأنت تعترف بى

فقال شداد فى حزن :

— لست أنكر أنك ابنى . ولقد علمت أننى آثرتك منذ كنت طفلا وحنوت عليك وأمنت إليك . ولكن لك أعماماً وأخوة و بنى عمومة ، ولى أصهار وأخوال وكلهم يملكون من هذا

لأمر ما أملك ، فلا أقدر أن أصرفهم عنه . إنهم يملكون أن يغضبوا على وعليك إذا ألحقت بهم المعرة بانتسابك .

وأطرق الشيخ واجماً ووضع رأسه بين كفيه . فقال عنترة في ضراعة :

أتكون معرتك أن تنسب إليهم عنترة ؟

فرفع شداد رأسه متردداً وقال :

— أمهلنى ياعنترة ، ولا تقس علىّ . إننى لا أقدر على أن أفرط فى مثلك فقد عجز الأحرار عن ولادة قرينك .

فقال عنترة فى نغمة يأس :

— فأنا إذن عنترة العبد حتى يرضى كل هؤلاء ؟

فقال شداد فى تردد :

— تريث بى حتى أحملهم على رأيى . تريث ياعنترة ولا تعد لى حديثك هذا . وتعال أحدثك الساعة عما كنت أود أن أبدأ به حديثى .

فقال عنترة فى حنق :

— أتريد أن تحدثنى فى غزو طيء ؟

فقال شداد : تعال أحدثك وإن تجد منى إلا ما ترضى .

فصاح عنترة :

— وأنا العبد حقاً إذا رضيت أو سمعت منك. أما وقد أبيت يا سيدى ألا أن أبقى عبداً فلن أكون لك إلا عبداً حتى يرضى كل هؤلاء فيهبوننى حريتى .

سأعتزل هذا الحى وسأقنع منك بما تعطى . أنا أعرف الآن أنك أبى لأنك قلتها بلسانك، فليس لى أن أتهم زبيبة منذ يومى. وسأرضى عن الحياة وان أطعن قلبى بيدى . سأبقى حياً فإن لى أملاً لا يزال يحملنى على الحياة ، وان أحس بعد اليوم فى قرارة نفسى عاراً .

ولكنى لن أبقى هاهنا. سأذهب إلى مراعيك لأكون هناك مع العبيد أمثالى . أما الحرب فحدث عنها سواى .

ومال يأخذ رمحه وسيفه فقال شداد فى دهشة :

— أذلك عنترة الذى أسمعه ؟

فصاح عنترة : نعم هذا عنترة العبد . هذا عبدك يا شداد بن قراد . سأذهب إلى البر لأرعى إبلك وأحلب نياقك وأدفع الذئب عن غنمك وسأجعل رمحى وسيفى لمصارعة الوحش ، إذ لا شأن لمثلى بالغزو والحرب . ولن ينبغى لى أن أقف دون

الحرم يوم يدعو الفزع لأن أبى لا يرضى لى ألا أن أكون عبداً .

وإذا بدا لك يوماً أن تنادى عنترة فلا تدعه إلا لكى يحمل لك قعباً من اللبن، أو لكى ينحر لضيفك جزوراً، وستجدنى لك كما شئت . ولن أملك قلبى هذا من محبتك لأنه لا ينكر أبوتك . سوف أكون عبدك أخفى عنك طرفى وغضبى وسوف أدير عينى إذا نظرت إلىّ حتى لا تلمح رميض عينىّ ، وسوف لا أجهر بذات نفسى تحت سمعك، ولا أتحدث عنك إلا من خلف ظهرك ، فإذا قربت منى فلن تسمع منى إلا ألفاظ الوفاء والولاء . هذه شيم العبيد فلا تنتظر منى سوى شيم العبيد يا بطل عبس وكريمها . يا سيدى شداد . هأنذا أخضع لك وأدعو مناة أن تحفظك من سيوف الأعداء . وهأنذا أقبل قدميك تذللاً .

ولما قال عنترة هذا أهوى إلى قدمى أبيه فجأة وقبلهما ، ثم نهض مسرعاً وذهب كأنه يهرب من عدو ، حتى اختفى وراء ثنية الوادى وخرج إلى الصحراء .

٦

كان عنترة واقفاً على ربوة ينظر إلى الحى المضطرب تحت عينيه ، وكانت خيل طيء تحيط بالبيوت من كل جانب وفرسان طيء يضطربون فى أنحاء السهل يحاولون أن يدفعوا العدو فلا يملكون معه شيئاً لأنه غمرهم بالعدد ، وكان أكثر فرسان عبس قد خرجوا مع الملك زهير بن جذيمة العبسى فى غزوة إلى بلاد طيء ، ولم يتركوا فى الحى إلا عدداً قليلاً مع شداد وأخيه مالك وجماعة ضئيلة من شيوخ عبس . وما هى إلا ساعة حتى دخل العدو فى أزقة الحى الضيقة بين البيوت ، وجعلوا يقطعون الحبال بسيوفهم ويقوضون الدعائم وينزعون الأوتاد ويدوسون من يلقاهم من أطفال ونسوة . وانفرط عقد العبسيين فصاروا يتدافعون ويتزاحمون فى ذعر وكلما اتجهوا وجهة وجدوا العدو يسد سبيلهم فيرتدون خفافاً ، وهم لا يبصرون ما دونهم إلا بعد أن يصطدموا به ، وتفلت الأمر من أيديهم حتى صارت رحى المعركة تدور بين حطام البيوت المقوضة ، فكان فرسان عبس يخبطون نساءهم وأطفالهم فى عماية المعمعة . وكان عنترة ينظر إلى

العجاج الثائر وقلبه يثب فى صدره ، حتى لقد هم بالنزول عن الربوة ليشارك قومه فى القتال، ولكنه كان كلما هم بذلك عاودته ذكرى حنقه على قومه فيردد فى صدره أنة تشبه الزمجرة ويحمل نفسه على البقاء فى مكانه قسراً .

ومرت بخاطره صورة ذلك اليوم الذى أقبل فيه العدو إلى ديار عبس وهو معتزل فى ذلك المكان يرعى إبل شداد ، فخرج إليه جمع من الفتيات يدعونه لنجدة قومه ، فلم يستطع أن يمتنع عن النجدة ، ونزل إلى العدو فقاتل فى صدر الفرسان حتى هزم العدو واستنقذ منه ما كان حازه من الغنائم ، وفك أسر من كان أسر . فما هو إلا أن فر العدو حتى أقبل قومه فاقتسموا الفىء الذى غنمه هو من العدو ولم يدعوا له إلا نصف سهم قائلين له إنه عبد شداد ، ولا ينبغى له أن يفوز بسهم فارس كامل . مرت بخاطره صورة ذلك اليوم وصور أخرى مثلها وتذكر كلمات أبيه إذ قال له إنه لا يستطيع أن يلحق المعرة بقومه بأن ينسبه إليهم فامتلأ قلبه حقداً وشماتة ، وأحس مرارة ما تجرع من الغصص طول حياته كلها فى تلك الساعات التى وقف فيها يتأمل المنظر المؤلم .

ولكن خاطر آخر خطر له جعل المعركة الدائرة فى نفسه أشد هولاً من المعركة الدامية التى كانت تدور بين حطام البيوت . فإن صورة عبلة لاحت له وخيل إليه أنه يراها تحت سنابك الخيل ، أو أن فارساً من طيئ قد عدا عليها فأخذها أسيرة لكى يتخذها أمة له كما أخذ أبوه شداد زبيبة أمة من قبل . وأحس دافعاً قويا يدفعه إلى النزول فانحدر عن الربوة حتى بلغ مكان فرسه الأبجر ووثب عليه وهمزه متجهاً نحو ميدان المعركة ، ولكنه لم يسر إلا قليلاً حتى لوى عنان الفرس وعاد إلى الربوة وجلس فوقها ينظر إلى السهل كأنه يمتع عينيه من طحن قومه فى القتال . وأخذ يكابر نفسه ويراجعها بأنه لا يزيد على أن يكون عبداً يرعى الإبل ويمن عليه شداد بأنه يركبه معه ويجلسه فى مجالس الأحرار من قومه . وما كان له أن يتطوع بالقتال عن سدته الذين لا يعرفون له بينهم مكاناً . وماذا كان يجديه من عبلة ابنة مالك إذا هو أنجاها من العدو المنتصر ؟ أليس أبوها هو الذى أولم وليمته لعمارة ابن زياد وقد جاء يخطبها ؟ فهل كان ليقاتل حتى يخلصها من فرسان طيئ حتى لا تكون أسيرة عندهم ولا يملكها فتى منهم ،

ثم تكون بعد ذلك عند عمارة بن زياد ويعود هو إلى إبل شداد ليرعاها ؟

بقى عنترة يعانى هذه المعركة الثائرة فى نفسه حيناً غير منتبه إلى ما حوله حتى سمع صوتاً من أسفل الربوة يناديه فى فزع ، فنظر تحته فإذا أبوه شداد يصيح به قائلاً :

— أما تسمع يا عنترة ندائى ؟ أما ترى قومك يصرعون تحت عينيك .

فنظر عنترة إليه ورفع قامته فى هياج وركز رمحه فى الأرض فى عنف . وصاح فى ضحكة وحشية :

— وما شأن عنترة بالقتال أيها الشيخ ؟ وما قومى الذين تدعونى إلى نصرتهم ؟ ليس لعنترة قوم . لقد علمت أن ليس لعنترة قوم . فاذهب عنى .

فصاح شداد :

— وحق مناة لقد أصابك الخبل أيها العاق .

فصاح به عنترة فى سخرية :

— لا تؤاخذنى يا مولاى فإنى نسيت الأدب فى خطابك . ولكنى عبد وما شأن العبيد بالقتال ؟

ثم عاد فضحك ضحكته الأولى .

فقال شداد :

— دع هذا الهراء وأسرع إلىّ .

فقال عنترة متحدياً :

— إنى تركت الركوب والقتال فليس لى قوم أقاتل عنهم .
إننى لا أحسن إلا أن أحلب النياق وأن أحفظ سخال الأغنام
وفصائل الإبل من عدوان الذئب .

هذا رمحى أستعمله هراوة فى يدى أهش به على غنمك
يا شداد بن قراد ، وهذا سيفى فى غمده أضرب به أعجاز الفحول
المتمردة عند موارد الماء . هذا يا سيدى ما أحسن من بلاء
الحياة ، فلا ينبغى لى أن أشارك السادة فى الدفاع .

إنما الحر هو الذى يسند الأحرار ، فاذهب إلى هؤلاء الذين
يحق لهم القتال . إذهب إلى أصهارك وأخوالك وإلى عمارة بن
زياد فادعهم إلى نصرتك . إذهب إلى بنى قراد فهؤلاء هم
الأحرار . أين مالك أخوك وأين عمرو ابنه ؟ وأين زخمة الجواد
وأين أبناؤه ؟ أين هؤلاء جميعاً فإنهم فى غنى عن العبد
ابن زبيبة .

وعاد إلى الضحك كأنه قد اختبل عقله .

فصاح شداد وهو ينفجر غيظاً :

— انزل ثكلتك أمك قبل أن أصعد إليك فانكل بوجهك الأسود .

فصاح عنتره فى جنون :

— إذهب أيها الشيخ عنى ، فإنك تسخر من نفسك . اذهب عنى فوحق مناة وكل آلهة عبس الجوفاء إننى لا أعرف القتال . ولن تجدنى إلا كما أردت ، عبداً يشمت كلما رأى ذل كبريائك . اذهب فقل لقومك هذا مصرع البغى ، وما اتخذ قوم بعضهم عبيداً إلا كان بعضهم فيهم عدوا . أنا عبد عبس ولست من عبس . سأنظر إليكم وأرى طحنكم وأمتع نفسى بقهركم وذلكم ، وماذا يضر العبد عنترة إذا نكل العدو بكم ؟ أنا اليوم عبد عبس وسأكون غداً عبد طيّ ، وإذا رعيت إبلك اليوم فى عبس فسأرعى إبل سيدى فى طيّ غدا . هذا ما تعلمته فيكم من الكرامة فاذهب عنى لا أبالك يا شداد بن قراد .

وكان الشيخ يسمع قوله وهو لا يصدق أذنيه فقال والغيظ يخنقه :

ــ لقد هممت أيها الشقى أن آتى إليك فأضع سيفى فى صدرك. أهذا عنترة الذى يخاطبنى ؟

فصاح عنترة : تعال أيها الشيخ فضع سيفك حيث أحببت . أتعجب من قولى وتسأل أهذا عنترة الذى يخاطبك ؟ بل أنا الذى أسأل أهذا هو شيخى وسيدى الذى يخاطبنى . ألا تذكر يوم تركتنى أذهب مع العبيد أمثالى لأرعى إبلك ثم نسيتنى ؟ أوجدت القتال أحر مما يقوى عليه فتيانكم ؟ أما تدعنى أيها الشيخ أحلب وأصرق وأتذلل فى الخطاب ؟ أما كان ينبغى لك ألا تجىء هنا حتى أجعل حقدى عليك من وراء ظهرك كما ينبغى لعبد مثلى ؟

فتوقل شداد فى الربوة صاعداً والغيظ يدفعه حتى اقترب من عنترة وأمسك بكتفه فهزه فى عنف وقال له :

ــ أنك تضيع الفرصة فى حديث باطل . هلم فانزل معى لا أم لك !

فارتمى عنترة عند قدميه وقبلهما ثم وقف أمامه متحدياً وقال :

ــ هأنذا قبلت قدميك كما فعلت مرة من قبل ... علىّ أن أمسح نعليك وأن أحمل لك إداوتك وكنانة سهامك ، وأن آتى

لضيفك بالطعام والشراب، واقف بين يديك صاغراً، مرهفاً أذنى لهمسات أمرك فاتحاً عينى لكل إشارة منك . اذهب يا سيدى فأنا عبدك الذى ينتظر خدمتك . فإذا وضعت الحرب أوزارها وجدتنى عند قدميك جاثياً . وأما القتال فقد قلت لك أنه ليس من شأنى . اذهب أنت لا أم لك سيدى . فلست أحسن إلا الحلب والصر ولا شأن لى بالضرب والكر .

وكان شداد يسمع هذه الكلمات وهو يتحرك فى قلق وينظر إلى عنترة فيفتح فمه ويهم بأن يصيح به صاخباً، فلا يدع له عنترة فرصة للقول بل يتدفق فى قوله الحانق تدفقاً متصلا . وكان بين حين وحين يلتفت إلى ميدان المعركة فيرى الفرسان لا يزالون يتجاولون ويتبارزون وهم يتنقلون بين البيوت التى دكت دكاً . ورأى النساء والأطفال يسوقهم العدو مع أسلاب الإبل والأغنام إلى ناحية فى انتظار القضاء على بقية المقاومة، فلما فرغ عنترة من قوله صاح شداد فى ضراعة :

ـــ أهكذا تتخلى عن قومك ؟ أما ترى العدو وقد حطمهم وكسر بيوتهم وأخذ نساءهم وأطفالهم سبايا ؟ أنظر يا عنترة إلى فم الشعب هناك حيث منازل أبيك وأعمامك ؟ ألا ترى العدو

يسوق نساءك وبنات أعمامك ؟ إنك تشمت والحر يشترى نفسه فى مثل هذا اليوم . فإذا أردت أن تكون ابن شداد حقاً فلست أبد الدهر بأبيك إذا أنت قعدت عن قومك . إن الحرية تشترى وليست توهب يا عنترة، والعبد هو الذى يتمنى وهو قاعد، فهو عبد إذا وهبت له الحرية عطاء . انها تكون كقطعة من العظام تلقى إلى كلب جائع ينتظرها صاغراً . قم يا عنترة وأزل عنا معرة هذا اليوم .

فانتفض عنترة وصاح بأبيه :

— وماذا يكون اسمى منذ اليوم يا سيدى ؟

فصاح شداد فى حنق :

— حسبك أيها الأحمق لا أم لك . ماذا يغنى الاسم عن الرجل إذا كان فى حقيقته عبداً . هلم يا عنترة فاسرع من ورائى.

فصاح عنترة :

— قل لى يا ابن شداد ولو مرة . قل ذلك يا أبى حتى أسمعك تدعونى ابنك .

فصاح شداد وهو يثب إلى أسفل الربوة :

— أسرع ورائى يا عنترة بن شداد . إنما العبد من يقول لك منذ اليوم غير ابن شداد .

فاندفع عنترة فى أثره حتى بلغ مكان الأبجر فوثب عليه وسبق أباه قائلا :

— الحق بى يا أبى وقاتل إلى جانبى . فسأنادى اليوم فى قتالى : أننى بن شداد .

٧

قضت عبس أياماً بعد انتصارها على طيئ فى عيد متصل ، إذ كانت نجاتها إحدى العجائب التى جرت المقادير بتدبيرها . فقد بغتتها طيىء بفرسانها على حين كان العبسيون مع ملكهم زهير بن جذيمة بعيدين عن الحى يطلبون ديار طيىء . ولم يبق فى الحلة إلا الفئة القليلة التى عجزت فى دفاعها حتى اجتاح المغيرون كل ما وقف فى سبيلهم ، وأحس القوم أن أمرهم قد انتهى إلى الدمار . ثم أقبل عنترة على غير انتظار فأحال الهزيمة الطاحنة إلى نصر باهر عجيب ، فهرب فرسان طيىء لا يلوون على شىء وتركوا ما أخذوا وما كان معهم سوى الخيل التى نجوا عليها سراعاً .

وعاد زهير بن جذيمة عند ما سمع أنباء الغزوة وما أصاب قومه فيها، ولكنه وجد الحلة فى عيد صاخب، ورأى عنترة فيه واسطة العقد فى الأسمار والولائم . فلم يدع وسيلة يعبر بها عن شكره وشكر قومه إلا توسل بها. وكانت الكؤوس إذا دارت فى مجلسه كان عنترة أول الشاربين ، وإذا أنشدت الأشعار فى حلقات الندىّ كان شعر عنترة على كل لسان ، وإذا أقبل الفتيات فى حلقات الرقص كان هتافهن باسم عنترة ، وما كان أحب اليه أن يسمع اسمه الجديد من أفواههن وهن ينادين عنترة بن شداد .

وسار عنترة ليلة من تلك الليالى مع عبلة وهو مخمور بخمرين : من الكؤوس العدة التى دارت عليه فى مجلس الملك زهير ومن حديث ابنة عمه التى كانت تهمس به اليه فى تهاتف من ضحكها وأنغام من صوتها الرخيم. وكان أحياناً يصف لها بعض ما كان بينه وبين فرسان طيء من مواقف فى يوم المعركة، وأحياناً يعيد عليها ذكر بعض مخاطراته فى سير الصحراء فى الليالى المظلمة، والغول تلوح له، والجن تتراقص أمام عينيه ، وأحياناً ينشدها من شعره ويحدثها بنجوى قلبه . ثم خطرت له ذكرى ما كان القوم يتحدثون به عن خطبة عمارة بن زياد لها فقال فجأة :

— أحقاً ما يقولون يا عبلة ؟

فقالت له باسمة : وما يقولون يا ابن عم ؟

فقال وقد أطربه نداؤها : إنك تسألينني كأنك لا تعرفين ما أقصد ياعبلة . لقد عهدتك تدركين ما وراء اللفظ قبل أن أنطق به .

فضحكت عبلة وقالت : أحقاً ذلك ياعنترة ؟

فقال عنترة : ألا تذكرين إذ كنت تسألينني عن أمر فأقول (لا) فتضحكين مني ، فإذا سألتك عن ضحكك قلت انني ما قصدت ان أقول لا . انك تحسين بالالهام عالم يقع بعد في سمعك . فما الذي جعلك تسألين عما يقولون ؟

فقالت عبلة ضاحكة : لقد كنت أنت الذي لا تدرك إلا ما وراء اللفظ يا عنترة ، فأنت ترى دائماً من ثنايا حديثي ما لم أقل لك . وإنك لتزعم انك تعرف من معاني قولي أكثر مما أعرف . ألا تذكر أنت إذ سألتني بالأمس عن عمارة فلما أجبتك لم يعجبك جوابي وأبيت إلا أن تزعم انني أراوغك . إلا أنك أنت الذي تراوغني اليوم .

فقال عنترة : لقد فهمت قصدي بالهامك فقد ذكرت عمارة .

فقالت عبلة ضاحكة : أف لك ولعمارة يا عنترة ! إن الناس يتحدثون فى شأنه وليت شعرى أى أحاديث الناس تقصد . فليس لهم من هم فى ليل أو نهار إلا أن يتحدثوا . إنهم يتحدثون إذا أكلوا ، و يتحدثون إذا شربوا ، وهم أكثر حديثاً مثلك الآن اذا حميت سورة الخمر فى رؤوسهم . هم يتحدثون إذا صحوا و إذا ناموا فأى هذه الأحاديث تقصد يا عنترة ؟

فقال عنترة : لست أبالى ما يقولون فى لياليهم أو نهارهم إلا إذا كان عنك أنت .

فقالت عبلة : وماذا يهمك من هذه الأحاديث ، وقد طالما سمعتك تقول إنك لا تبالى ثرثرتهم ؟

فقال عنترة فى نغمة عتاب : أنت يا عبلة تعبثين بى كعادتك ، وأنا بين يديك أضعف من فرخ اليمام وأخف من ريشة فى الهواء . ذرينى يا عبلة أعرف ما فى قلبك .

فقالت فى دلال : وأين ادعاؤك أن شيطانك يلهمك ؟

فقال عنترة : إن هذا الشيطان لم يستطع يوماً أن يسبر غور قلبك . إنه لا يسبر إلا غورى ولا يكشف إلا قلبى . أما أنت فانى أجلس معك وأسير إلى جانبك ، وأعرج فى السماء إلى حيث

أحيا فى عوالم سحرية من السعادة تلهينى عن كل هذه الأرض ، ثم أنصرف وقلبى فى حيرة بين الأمل الذى يلوح لى والقلق الذى يساورنى . فأنظر حيناً إلى الأرض فأراها جنات فيحاء تحيط بها الأنهار وتتفجر فيها العيون ويبتسم فيها الزهر ويغنى الطير ، ثم لا ألبث أن أحس الشجون تثور بى فلا أعرف أأنا أطأ الأرض بقدمى أم أنا فوق لجة تضطرب بى . ومع ذلك فإن شيطانى فى شغل عنك بى .

فقالت عبلة فى مرح :

— هذا هو شعرك دائماً ياعنترة . تحدّث وأطل فى الحديث فإنه ينزل على سمعى كما يقع الندى على أوراق الشجر .

فقال عنترة فى شىء من الألم :

— إنه حديثى . وإنه شعرى . نعم فأنا أحدثك وأصف لك حروبى وأطرب كلما سمعتك تستزيدين من وصفى . ولكنه دائماً قولى وشعرى ووصفى . وأما أنت فلا تزالين دونى مثل النجم أبعد ما يكون إذا بدا قريباً . وإنه ليحزننى ألا أسمع منك إلا ذلك الإعجاب بما أقول وبما أصف .

فقالت عبلة فى شىء من الضيق : وماذا يرضيك أن أقول؟

فقال عنترة فى صوت متهدج :

— لقد خدمتك أخلص ما تكون خدمة العبد ، ولم أستشعر معك كبراً . وكم جثوت تحت قدميك وأنا أقدم لك قعب اللبن لتشربى منه ، وكنت أقول لك من أعماق قلبى (هنيئاً) . أنت أبداً علالتى فى الحياة وكنت أطمع أن أكون عندك شيئاً . كنت أطمع أن أسمع قلبك ينبض مرة من المرات مستجيباً لخفقان قلبى .

فضحكت عبلة ضحكة بعثت رعدة إلى قلب عنترة ، ثم قالت :

— ألا تمسك يا عنترة عن وصف نفسك هذا الوصف الذى لا أحب أن أسمعه منك ؟ إنك ابن عمى عنترة وأنت تعلم أننى ما نظرت إليك يوماً إلا نظرتى إلى ابن عم لى .

فقال عنترة فى شىء من الحنق :

— إنها كلمات جوفاء لا تحمل إلى معنى .

فاستمرت عبلة فى ضحكها وقالت :

— ألست عجيباً يا عنترة ؟ ليتنى أعرف السبيل إلى كلمة ترضيك فأسرع إليها .

فقال عنترة فى حرارة :

— أنت لا تعرفين الكلمة لأن قلبك لا ينطوى عليها . وما طلبى ولجاجتى إذا كان ما أطلب مستعصياً ؟ قولى لى قولاً صريحاً يا عبلة ولا تتجملى . قولى إنك ترحميننى أوأنك تعطفين على أو أنك تشعرين السرور من قصصى وحديثى وشعرى . قولى ذلك ولا يأس عليك فإنى أعرف كيف يبدو لك وجهى . لقد طالما وقفت أمام الغدران أنظر إلى صورتى فلم أر فيها غير لونى الأسود وعينى المتقدتين يطير منهما شعاع مخيف . فلا بأس عليك إذا أنت لم يطربك منى سوى حديثى وشعرى .

فقالت عبلة فى بعض ضجر :

— إنك تذهلنى بسيل حديثك الخانق ، حتى لقد ارتج على القول فلا أجد لك جواباً .

فقال عنترة فى غضب :

— ما أحمقنى إذ أحاول أن أنتزع القول منك قسراً .

فقالت عبلة وقد ذهب عنها مرحها :

— يخيل إلىّ أن قولك هذا يحمل من الجد فوق ما كنت أحسب . ماذا فعلت يا عنترة حتى استحق منك هذا العتاب .

لقد بعدت فى القول عما بدأت فيه . ألا تقول لى ماذا تعنى ؟

فقال عنترة فى حرارة :

— إننى أسالك عن نفسك أنت . قولى لى الحق ولا ترفقى بشقائى . قولى لى انك فوق نظراتى وفوق عبادتى .

فقالت عبلة فى تبرم :

— قول عجيب وحق مناة . ألاح لك منى ما ينم عن شىء تكرهه ؟

فقال عنترة فى صوت متهدج :

— أنت تتجاهلين ما تعرفين . وتتجاهلين ما يتحدث به الناس جميعاً فى نواديهم وطى بيوتهم . ألم يخطبك عمارة بن زياد وأنت تحجبين ذلك النبأ عنى ؟ ألم يولم له أبوك وليمة كأنه ملك؟ أما كنت تخدمينه وتسعين فى البيت تستحثين الإماء لكى يبالغوا فى إكرامه ؟ هذا أنت منذ الليلة تروغين ولا تريدين أن تتحدثى بكل هذا الذى تعرفين .

فقالت عبلة واجمة :

— عجباً منك يا عنترة أهذا هو ما تعنى ؟

فقال عنترة مندفعاً فى غضبه :

— إنك تتخذينى لعبة ولا تريدين أن تكشفى لى عن حقيقة نفسك . الويل لعمارة والويل ثم الويل لك إذا اتجهت منك لفتة إلى عمارة .

فقالت عبلة غاضبة :

— إنك ترمينى بسهام فى هذه الدفعات الحانقة . ثم أنت هذا تجبهنى وتطعن قلبى وتنادينى بالويل .

ودمعت عيناها عند ذلك واندفعت تسير عنه غاضبة .

فقال عنترة مترفقاً وهو يسرع وراءها :

— عفواً يا عبلة فإن شقائى هو الذى حرك لسانى .

أأقول لك الويل وإن دمعة من عينيك أفتديها إذا استطعت بحياتى ؟ ويلى أنا وتعساً لى ! وحاشاك أن يحل الويل ساحتك يا عبلة !

ولكن عبلة سارت فى طريقها صامتة ومسحت دمعها بطرف كمها .

واستمر عنترة قائلاً :

— ألا تقولين لى إنك عفوت ؟ أحقاً أنت رضيت بابن زياد زوجاً ؟

فقالت عبلة غاضبة :

— وما شأنى فى زياد وابن زياد ؟

فقال عنترة مترفقاً : قولى كلمة يستقر لها قلبى . إنهم يتحدثون ويملأون صدرى شقاء . فهل رضيت به حقاً ؟

فقالت عبلة فى حنق :

— وما أنا وذلك واست إلا فتاة ، جاء ضيف إلى أبى فسعيت مع أهل بيتى فى خدمته ؟

فقال عنترة فى لهفة :

— ورضاؤك ؟

فقالت فى شبه سخرية :

— رضائى ؟

فقال عنترة ضارعاً :

— نعم رضاؤك يا عبلة . أترضين به زوجاً ؟

فقالت عبلة فى تحد :

— وما رضائى أنا يا عنترة ؟ فهل أنا إلا فتاة فى بيت أبى ؟

فقال عنترة مندفعاً :

— ستذهبين إذاً إلى بيت ابن زياد إذا رضى أبوك .

ستكونين إذاً له زوجة إذا قبل مالك بن قراد . ستذهبين إذن كما تذهب الأمة مع سيدها .

فقالت عبلة غاضبة فى كبرياء :

— كف لسانك يا عنترة لست أمة ، وما ينبغى لى أن أكون أمة . إنما الأمة غيرى .

فصاح عنترة فى حنق :

— نعم الأمة غيرك يا عبلة . إنها زبيبة أمى .

فقالت عبلة فى جفاء : قل ما بدا لك فإن أحبك .

فقال عنترة فى صوت أجش :

— الآن قد برح الخفاء يا عبلة وانجلى الظلام الذى كان يحجب الحقيقة عنى . الآن عرفت ما كنت أبغى أن أعرف . ما كان أحمقنى إذ كنت أسعى إلى أن أعرف هذا الذى عندك فأرتد شقياً بعد أن كنت أمرح فى جهالتى سعيداً . إذن فهو زوجك ابن زياد الذى يرضاه أبوك وترضينه يا عبلة .

وأما أنا فلست إلا ابن زبيبة الذى يحدثك ويرعى لك وقت فراغك .

ثم ثار وقال فى وحشية :

— إنى ابن زبيبة ، ولن يذهب هذا العار عنى . فلأذهبن إذن مع سيول من الدماء وعواصف من اللهيب ، فإن دون ابن زياد لمهالك تنقطع دونها همته . ألا فاعلمى يا عبلة أن ابن زياد لن يقرب منك ، فأنت لى أنا . أنا الذى أحببتك وعبدتك ولا أستطيع أن أحيا إلا بك . أنا ابن زبيبة الذى اشتريت حريتى بسيفى من أجلك .

نعم من أجلك أنت يا عبلة . ألا فاذكرى يا عبلة قولى . سوف أبعث إليك ليلة زفافك برأس هذا الفتى الوسيم لتكون هدية عرسك ، ولن تزال العرب تتحدث بذكرها أبد الدهر .

تذكرى هذه الهدية التى سأهديها . فإذا ما حانت ليلة زفافك إلى عمارة فاذكرينى واذكرى هديتى .

وكانا قد قربا من بيت عبلة ، فوقف عنترة يعترض سبيلها ليتم لها فيض حنته . ولكنها لم تنظر إليه ، ومضت مسرعة نحو بيتها . ووقف عنترة حيناً ينظر فى أعقابها وكأن ناراً تلتهم قلبه ، ثم دار فجأة على عقبيه واتجه نحو الصحراء ، وذهب يخبط الأرض برمحه وهو لا يدرى إلى أين يتجه .

٨

خلا شعب الجواء من منازل مالك بن قراد منذ نزح بأهله إلى أرض شيبان ، وقد ضاقت به الحياة فى قومه منذ جهر عنترة بما ينطوى عليه قلبه من حب عبلة والتعلق بها ، وما اعتزمه من عداوة كل من يجرؤ على طلب زواجها . وكان مالك يضمر فى قرارة نفسه إحساساً بالمعرة من أن يعطى ابنته لعنترة وإن كان فارس قومه وحاميهم ، وما كان مثله ليصهر إلى رجل ولدته زبيبة الأمة، فيمزج دماءه بدماء عبد وإن كان ذلك عنترة الفارس وابن أخيه . وكان عمرو بن مالك أشد من أبيه أنفة وكبراً ، فهو يؤثر صديقه عمارة بن زياد السيد الوهاب المنحدر من سلسلة الأمجاد من الآباء والحرائر من الأمهات والجدات . ولم تكن عبلة بأقل ضيقاً وألماً من أبيها ، فقد وجدت نفسها قطب الأحاديث فى نوادى قومها وهدف الحسد من صاحباتها ، لا يخلو يوم من نفرة فى الحى من أجلها ، حتى كاد القتال يدور بين طوائف متنازعة فى قبيلتها ، فمنهم من يهتف بعنترة ومنهم من يتحيز لعمارة ، وهم فى كل يوم وفى كل ليلة يتصادمون ويتنازعون

حول اسمها . فانطوت على نفسها كئيبة لا ترضى بأن تزور ولا بأن تخرج للقاء من يأتى اليها فى زياره . وكان صاحباتها كلما جئن اليها لا يجدنها على عادتها مرحة مستبشرة تملأ المجالس بهجة وتبعث فيها روحاً من صوتها العذب الضاحك .

وكان ألمها يزداد كلما تذكرت ما كان بينها و بين عنترة فى تلك الليلة، إذ سار إلى جانبها وقال لها إنها ستذهب إلى بيت عمارة كأنها الأمة الأسيرة ، ولم يتردد فى غضبه أن ناداها بالويل وأغلظ فى حديثها ولم يرض منها بما كانت تهدهد به نفسه من مواساتها واعتذارها . بل إنه هددها بهديته الدموية إذ قال إنه سوف يرسل إليها رأس عمارة ليلة زفافها .

وكانت فى اعتكافها ساكنة تقضى أكثر الوقت فى فراشها، وتبكى أحيانا ولا تدرى ما الذى أبكاها ، حتى حال لونها وذبلت نضرتها وامتلأ صدرها كآبة .

وضاق المقام بأبيها مالك وحار فى أمره كيف يطيق الحياة وهو يسمع الناس ينشدون شعر عنترة فى ابنته ويستعيدونه فى مجالسهم . وكانت أنفته تثور ولكنه كان لا يستطيع أن يقاتل الناس كل يوم وهم لا يفعلون إلا ما تفعل العرب فى إنشاد

شعار شعرائها . ولكن ولده عمرو كان لايمسك نفسه ، فكان
يمر بقوم يتغنون بذلك الشعر إلا بادرهم باللفظ الخانق وهم
نتالهم . فأشفق مالك من ذلك كله ولم يجد له مخرجا الا أن
غادر أرضه ويرحل إلى أصهاره فى بنى شيبان .

ولم يطق عنترة كذلك البقاء فى قومه ، فهام على وجهه
الصحراء ، فكان لايلم بالحى إلا بين حين وحين . وكانت زيارته
لا تزيد على أن تكون اللامة بشعب الجواء فيقضى منه أربه من
نسم نسيمه وانشاد بعض الشعر عنده ، ثم يعود إلى صحرائه ليضرب
فى شعابها ، حتى تغير وأصبح لا يكاد يرى مجامع الناس .

وعاد يوماً إلى طلل دار عبلة وهو أشعث أغبر ، قد برزت
جنتاه وغارت عيناه واصفر لونه الأسمر ، ولم يبق منه سوى
عينين تأتلقان ، كأن شعاعهما بريق السيف فى ضوء القمر .

وجاء إلى طلل الدار فجال بين مواضع نيرانه وآثار أوتاده ،
بقايا النؤى التى كانت تحيط بخيامه ، ثم وقف مبهوتا يمسك
على رمحه المركوز فى الرمل بيديه مستندا بذقنه عليه ، كأنما هو
تمثال فى خرائب معبد مندثر .

وقضى ساعة وهو يتأمل ما تحت عينيه ، فهناك كان خباء

عبلة ، وهناك كانت تقبل عليه بأسمه تتناول منه قعب اللبن في الصباح ، وهناك كانت تضحك مكركرة إذا سمعته يهمس لها بكلمة حب ، وهناك كانت تقف ناظرة اليه في عطف وهو يصف لها آخر مغازيه ، حتى إذا ما انتهى أرهف أذنيه ليسمع منها كلمتها التي كان يكتفي بها لشفاء غلته .

ثم تذكر كيف أتى اليها عند ما سمع بمرضها فلم يأذن له أبوها برؤيتها ، فلما أرسل اليها أمه لم تجد منها سوى البكاء ، ولم تسمع منها إلا كلمات يبدو فيها الحنق والحزن . ونظر إلى بيوت الحي المنثورة في أنحاء السهل ، فأحس من نفسه دفعة إلى أن يمضي اليها فيطعن من فيها برمحه ويضرب فيهم بسيفه حتى لا يبقى أحداً بعدها في تلك الديار التي كانت هي صاحبتها وهي النازلة فيها . فما هذه البيوت بعد أن خلت منها ؟ وما تلك القبيلة كلها بعد أن رحلت عبلة عنها ؟

ثم جعل يتغنى ببعض شعره وهو متكئ بذقنه على يديه مستنداً على رمحه لا يحس شيئاً مما حوله ، حتى أقبل أخوه شيبوب من ورائه فسمعه وهو يقول :

خليلي أمسى حب عبلة قاتلي   وبأسي شديد والحسام مهند

حرام على النوم يا ابنة مالك ومن فرشه جمر الغضا كيف يرقد
سأندب حتى يعلم الطير أننى حزين ويرثى لى الحمام المغرد
وألثم أرضاً كنت فيها مقيمة لعل لهيبي من ثرى الأرض يبرد
رحلت وقلبي يا ابنة العم تائه على أثر الأظعان للركب ينشد
لئن يشمت الأعداء يابنت مالك فان ودادى مثلما كان يعهد

فناداه شيبوب من ورائه قائلا :

— ها هى ذى ركائبك يا عنتره حاضرة .

ونظر إليه عنتره فى فتور ، ثم نزع الرمح من الرمل وسار يجرر رجليه وهو صامت ، حتى ركب فرسه ، وسار أخوه يسوق الإبل المحملة من ورائه . وبقى عنترة على إنشاده كأنه يهمس به إلى نفسه حتى بعد عن الحى وأوغل فى الصحراء .

وأقبل الليل فتقدم إليه أخوه شيبوب وسأله النزول فقال عنترة واجماً :

— لوددت أن أسير ليلى ونهارى ، فانى لا أطيق أن استقر يا شيبوب .

فقال شيبوب عاطفاً :

— ولكنى لست مثلك يا عنترة ، ولا بد لى من أن أذوق من

الطعام والخمر بعد كل يوم . ثم مضى ليوقد النار ويعد الطعام . وجلس عنترة وحده يناجى شجونه حتى عاد إليه شيبوب يحمل الطعام ، ولم يستطع أن يقاومه فذاق معه شيئاً، ثم أخذ منه كأساً بعد كأس وهو يغمغم بين حين وحين فى نفسه ببعض الشعر ، ثم اتجه بعد حين إلى شيبوب وقد حركته الخمر فقال :

— هذا الفضاء الفسيح يشملنا وحدنا ، فكل ما فيه من وديان وتلال وأغوار لنا وحدنا . ولو كان فى هذه الوديان أموال لم يمتنع علينا شىء منها . فأنا ملك هذه الأرض يا شيبوب .

ثم تردد حيناً وقال فى حزن :

— ولكنى لا أطلب من هذه الحياة شيئاً . وما أصنع بالمال وقد فقدت عبلة ؟ إننى لا أعبأ بهذه الإبل ، فمسحل بن طراق الكندى يملك منها آلافاً ويسوقها صداقاً لعبلة ، وفى بنى شيبان يملك مثلها قيس بن مسعود لكى يهبها مهراً لعبلة عن ابنه بسطام، ويملك عمارة مثلها وهو يتقدم بها إلى مالك ليزوجه بعبلة . كل هؤلاء يملكون الإبل فتعساً لها وبعداً لمن ملكها !

وكان شيبوب قد أفرغ كأسه وقال فى مرح :

— لو كنت عنترة لقصدت إلى شيبان فنزعت عبلة من بين

ظهرانيهم وخرجت بها إلى البر كما يخرج الأسد بفريسته .

فقال عنترة : ويلك يا شيبوب ! بل أذهب إليها لكى أذرف دمعى وأدفق ما فى قلبى حتى ترضى عنى .

ولاحت عند ذلك سحابة من الطير تضىء بشعاع القمر تيمم نحو الغرب ، فقال عنترة وهو ينظر إليها :

— ليت لى جناح هذا الطير فاذهب حيث شئت وأنتقل مع سرعة خاطرى إلى حيث تتوق نفسى .

بل ليت لى مثل جناحها فأحلق فوق هذه الأرض وأقذف عليها من السماء حمما حتى لا يبقى عليها غير عبلة يا شيبوب .

إنهم لا يزالون ينظرون إلىّ كما ينظرون إليك . إننى ابن زبيبة وإن نسبنى شداد اليه .

فقال شيبوب ضاحكاً :

— لست أبالى كيف ينظرون إلى .

فقال عنترة : لقد كدت أحسدك على نفسك يا شيبوب ، فانى ما زلت حيث كنت بعيداً عن سعادتى ، ألمحها أمامى وهى تهرب منى كما يهرب الجبان الذى يركب مهراً سريعاً .

لم يكن الرق هو الذى يحول بينى وبينها ، بل هو الحظ يسترون

به ما فى نفوسهم من الكبرياء الضعيفة . ليس الرق سوى وهم يرضى به الضعفاء ضعفهم ، فهم لايجدون ما يميزون به أنفسهم إلا أن يهبطوا بمثلى إلى ما دونهم ، حتى يلوحوا فى الأعين أعظم من عنترة .

فقال شيبوب وهو يملأ كأسه :

— أنت تحس الذل لأنك تحتاج إليهم . إن هذا الغل الذى تضعه حول عنقك هو الذى يذلك وليس ما تحسبه من كبريائهم . إن هذا الذى تسميه الحب أسميه أنا الرق والذل . فعجبا منك إذ تقوى على هذه الدماء تسفكها ولا تقوى على قيدك الذى تقيدك به فتاة .

فقال عنترة وهو يجرع كأسه :

— لست ألومك يا شيبوب لأنك لا تحمل نفسى . ولكن لك قلب لم تحركه إلا كما يتحرك قلبى . أنت تخدع نفسك حتى ترضى بما أنت فيه .

فقال شيبوب : إنما العبد من يستمد من الناس حريته . إننى أعيش لنفسى ، وإذا نظرت إلى هذا الناس لا أكاد أرى منهم أحداً سواك أنت وأمى وإخوتى . أما سائر الأحياء فإنى

أمقتهم وأخدعهم وأخونهم ، ولو استطعت أن أفتك بهم لما ترددت لحظة . إنني أسرق أحياناً وما بي من حاجة إلى الذي أسرقه، وأكذب وليس ما يدعو إلى الكذب . وما ذلك إلا لأني أمتع نفسي بأن أوقع بهم الغيظ وأسخر منهم . ولست أجد عفة عن نسائهم ولا غضباً لأعراضهم، ولولاك لكنت أطعن في الحرب في ظهورهم . أما قلت لك إنك لن تجد منهم غير ما أجد أنا ؟ فما الذي يجشمك هذه المتاعب في طلب ما لا يجديك معهم نفعاً .

فقال عنترة : هذا قضائي وليكن لك ما ترى . سأذهب إليها لعلي أنظر إلى وجهها ، ولعلي أجد الدمع قد جف من مقلتيها . ثم لن أزال بهذا الرجل حتى أتملق كبرياءه ، ولن أزال بابنه الأحمق حتى أهدهد غروره . سوف أتذلل وسوف أبكي وسوف أقتحم اللجج والنيران . سوف أخدم شيبان وأرعى لها إبلها كما كنت أرعى إبل شداد لكي يرضوا بمقامي قريباً منها .

فقام شيبوب وأخذ كأسه في يده ورفعها قائلا :

— أحمق ورب الكعبة ! إنهم لا يريدون وحق مناة إلا أن يرموا بك في المهالك ولا يروا لك وجهاً .

وأما أنا فانى ان أعدل بهذه الكأس شيئاً . وهى عندى خير من عبلة وكل قومها . أنا أعرف كيف أحيا وكيف أنعم بطعامى وشرابى ، وكيف أصل النساء ، وكيف أقتنص الوحش. فلا أظنك تحرص إلا على الوهم الذى يصوره لك الخيال . اذهب كما شئت والتمس ما شئت فانا أحب أن أكون معك وان أتخلى عن صحبتك . أنك تحبها لأنك تطلب علالة لحياتك ، وأنت تجد لذتك فيما تأمل . وأما أنا فانى أجد لذتى فيما أذوق وأقارف .

أنت تسعى وتتألم وأنا أحيا وأتنعم .

ثم شرب كأسه وقال وهو يرقص :

هات اسقنى من خمرة　　بالكاس أو بالجرة

شقراء مثل الدرة　　عاطرة كالزهرة

بنت كريم حرة　　أودع فيها سره

والليل يجلو بدره　　والنجم يرعى فجره

لكل ليل بكره　　لكل حى حفرة

ما العيش إلا مرة

وكان عنترة ينظر إليه باسماً حتى إذا ما انتهى من إنشاده قال له : لقد كدت يا شيبوب تفتننى .

٩

قضى عنترة ليالى فى سجنه يتوجع ، ولم تكن الجراح التى أصابته هى التى توجعه ، لأن جرح قلبه كان أشد ألماً . فقد أتى إلى العراق يطلب المهر الذى طلبه أبو عبلة من النوق العصافير ، التى كان الملك النعمان يملكها ، ولم تكن فى قبائل العرب قبيلة تعرفها .

كانت بيضاء كأنها وعول الجبال ، خفيفة كأنها الغزلان ، طيبة الألبان كالبقر ، حلوة المنظر كالمها ، طيبة اللحم كأنها الحملان . وأبى مالك إلا أن يكون مهر عبلة من هذه النوق التى يحميها النعمان فى مراعى الحيرة ، ولا يجرؤ على الاقتراب من حماها إلا مستيئس من الحياة .

وأتى عنترة يضرب فى الصحارى نحو العراق وصورة عبلة ماثلة أمام عينيه عند كل ثنية وعند كل مرقب . وما كان أحب إليه من تلك المخاطرة الجريئة التى اعتزم أن يخاطر بها ، لأنه كان يجد فيها مجالا لمجد جديد يسمو به إلى الحبيبة التى كان لا يرى فى الحياة شيئاً يستحق أن يحرص عليه إلا حبها . وكان فى أثناء سيره فى

تلك الصحارى الجاهمة يردد كلمات عبلة التى قالتها له وهى تودعه أمام بيت أبيها فى بنى شيبان إذ قالت له : « سوف أنتظرك حتى تعود وإن طالت غيبتك » . وكان يستعيد حديثها فى ليلة الوداع وهى راضية باسمة تقول له « هكذا أراد أبى ، ولو كان لى الاختيار لما اخترت إلا ابن عمى » . كانت كلماتها كلها مسطورة على قلبه يدخرها كأثمن الكنوز ، كما يدخر المقطوع فى الصحراء الماء فى الأحواض البراقة الملساء فى بطون الجبال ليطفىء به حرور الهجير . وكانت نظراتها العاطفة إليه وهو يثب على فرسه (الأبجر) لاتزال تطلع عليه كالقمر فى الليلة الظلماء إذا أطل فى مهمه القفر على السارى الذى ضل السبيل فيه . كانت بسماتها ونظراتها تتردد فى قلبه كأنها الأغانى التى تحدو سيره فى ذلك الطريق الوعر الطويل ، يقوى بها نفسه إذا أجهده الحر ، ويغذى بها روحه إذا أمضه الجوع ، ويجعلها سمره إذا شرب الخمر ، وحديثه إذا جلس إليه أخوه وصاحبه شيبوب .

ولكنه ذهب إلى العراق يطلب مطلباً عسيراً ، لأنه أقدم على مراعى النعمان وأراد أن يسوق منها ما شاء من الإبل العصافير . فما هو إلا أن أحس الرعيان به حتى أرسلوا النذر إلى الملك

العظيم فى الحيرة . وفيما هو يضرب فى اعجاز الإبل مسرعا نحو الصحراء أدركه الملك فى كتيبة من الفرسان فأحاطوا به وبالنوق التى استاقها . وكانت معركة بين فارس ثائر مستميت وجيش لجب من الشجعان . فلم يستطع إلا أن يقاتل ما بقى فى يده سيف أو رمح ، ثم أثخنته الجراح وخر صريعاً ، وحمل إلى الحيرة بين الموت والحياة .

ورآه شيبوب يقاتل فى وسط الحلقة المخيفة فلم يستطع أن يخلص إليه ، فقد كان الموت يحول بينهما . ورأى السيوف تلمع والرماح تتقصف فى معركة هائلة ، فلم يجد خيراً له من أن يندس بين الصخور يرقب القتال ، حتى إذا ما رأى عنترة يخر عن جواده زحف متواريا بين الحجارة ، حتى جعل التلال وراءه ثم قام وأطلق ساقيه للريح .

وقضى عنترة فى السجن ليالى ما كان أطولها ، وكان أشد ما أصابه فى كل ما وقع به أنه خاب فى أن يحوز مهر عبلة ، وأنه قد حيل بينه وبينها فى ذلك السجن القاتم الذى كان النور يدخل إليه متردداً من فرجات ضيقة بين قضبان الحديد .

فكان ينظر إلى النجوم اللامعة يناجيها ، ويرى صورة عبلة فيها ، ويستعيد نظراتها وبسماتها فى لألائها ويسمع أصداء صوت

عبلة العذب فى نجواها ، ويرسل على شعاعها تحيات يائس من الحياة . ثم طلبه النعمان بعد أن التأمت جروحه لكى يرى الرجل الذى جاء إليه وحده غازيا ، وحمله النحس على أن يطلب المحال ويجرؤ على استباحة حماه . وأدخل عنترة عليه مقيداً فى سلاسله، وقد جلس حول الإيوان شيوخ من تغلب وشيبان ينظرون إليه ويعجبون .

وكان الملك غاضباً يحاول أن يمسك نفسه حتى يسمع قوله قبل أن يوقع به العقاب ، فانه لم ير مثل هذا الأسود رجلا .

وتأمله النعمان ساعة وهو صامت ثم قال له :

— من أنت أيها البائس ؟

فقال عنترة ناظراً إليه هادئاً :

— أنت ترانى أمام عينيك .

فسرت همهمة فى الجلوس وصاح الملك :

— أسألك عن نفسك . أسألك عن قومك إن كان لك قوم. وما أحسبك إلا عبداً آبقاً .

فقاطعه عنترة قائلا :

— العبد غيرى !

فقال الملك وهو يحاول أن يمسك غضبه :

— أما تعرف ما فعلت ؟

فقال عنترة : جئت الى حمى النعمان لاستاق نوقه العصافير .

فقال النعمان في دهشة :

— إنك امرؤ بين الحمق والجنون .

فقال عنترة ثابتاً : أتسمع منى هذرا ؟

فقال النعمان حانقاً :

— بل أرى أعجب من الحمق والجنون . إنك رجل واحد تأتى من أقصى الأرض لـكى تسوق إبلى . أكنت تحسب أن لن يرد كيدك أحد ؟ لأقطعن أعضاءك ولأقذفن بك إلى حيث ينبغى لمثلك أن يلقى .

فقال عنترة مبادراً :

— كفكف أيها الملك غضبك ، فلست تأمن مثلى أن يرد عليك قولا بمثله . لست أخشى وعيدك وأنا فى يدك . وإنه ليحق لى أن أعجب منك إذ ترانى فى يدك ثم تهددنى . ولو شئت أن أرد عليك لـكان مجال القول متسعاً . فما كان ينبغى لمثلك أن تأتى بى إلى مجلسك وتجمع هؤلاء الشيوخ حولك لـكى تهددنى

بتقطيع أوصالي والمثلة بجسمي . وليس ما يمنعني من أن أركب معك أوعر الوعر في الخطاب .

فاربدّ وجه الملك وقال :

— لص جرىء :

فقال عنترة في دفعة : بل مغير أتى يطلب الغنيمة .

فقال النعمان :

— ألك ثأر عندي ؟

فقال عنترة : بل جئت أطلب نوقك العصافير كما يطلب الأسد صيداً ، أو كما يطلب بعض هؤلاء العرب إبل بعض في الغزوات . فما أنا أيها الملك وما أنت وما هؤلاء جميعاً سوى عرب يترددون بين وديان نجد وتهامة وهضاب الدهناء واليمامة وكلهم يسلب ويغزو . لست بالسارق أيها الملك إذا لم تكن أنت سارقا و إذا لم يكن هؤلاء جميعاً لصوصاً .

فسرت غمغمة عاليـة حول الإيوان وقال الملك في غضب مكتوم :

— أقصر عن ذلك لا أم لك ، وحدثني إذا لم تكن لصاً . أبعثك أحد علي عينا ؟ أم استأجرك بعض أعدائي ليتحدث

الناس بجرأتك فيغض من قدرى . قل واصدقنى ولك منى حياتك.
فقال عنترة ساخراً :

— بل جئت إليك لأستاق إبلك لنفسى . وما كنت لأحارب لأحد غيرى . وما كان مثلى ليدب إليك جاسوساً .

فصاح النعمان ساخراً .

— مثلك ؟ ومن أنت إذا لم تكن أحد هؤلاء الصعاليك الذين لاينتمون إلى قبيلة ؟ أو لعلك من هؤلاء الذين لفظتهم أقوامهم ليبرأوا من معرة جرائرهم فلم تجد سبيلا إلا اقتحام المهالك. وإن فى وجهك الأسود لدلالة على صحة رأيى . من أنت أيها الأسود الكريه ؟

فقال عنترة هادئاً :

— أما وقد ذكرت سوادى فاعلم أيها الملك ما يملؤك فزعا . ثم تضاءل فى نفسك واشكر مناة على أنك نجوت من قتلى . أنا عنترة بن شداد .

فسرت ضجة فى الجميع وقال النعمان فى دفعة :

— عنترة ؟

فقال عنترة : نعم أنا عنترة الذى تعرف . أنت تعرف من

أنا وتسمع الـكثير من خبرى . أنا عنترة فاملأ قلبك غيظاً إن شئت .

فمال النعمان إلى ظهر كرسيه وقال باسماً فى سخرية :

— لو صدقت لسرنى أن أراك فى القيود أمامى . إنك كنت تفزع الضعفاء وتقطع السبيل، وكانت القبائل تضج من اعتدائك . نعم لو صدقت لسرنى أن أراك مقيداً أمامى ، فقد دفعك الغرور إلى أن هممت باستباحة حمى ملك العرب . وحق مناة لو كنت عنترة لقد سعيت إلى هنا لتلقى عقوبتك .

فقال عنترة ضاحكا :

— وهل على امرىء من عار إذا أخذ أسيراً ؟ هل علىّ من عار إذا أحاط بى جيشك وقادنى إليك بعد أن جدلت من أبطالك من جدلت وشردت من شردت وطاعنت حتى لم يبق فى يدى سنان ولا تحتى فرس ؟

فقال النعمان فى حنق :

— إنك تزعم أنك عنترة ومن لى أن أصدقك . إنك لاتقول هذا إلا كذبا لأجعل لك عندى قدراً .

فقال عنترة ضاحكا :

— وما الذى يحملنى على الـكذب واتخاذ اسم عنترة شعاراً ؟ إنما أعرف أن هذا الاسم لا يحمل لى إلا عداوتك وكراهتك . لقد كنت أطمع فى عفوك لو كنت بعض صعاليك العرب بعد أن شهدت ما شهدت من بلائى فى حربك ، فقد كان ذلك يطمعنى فى عفوك لعلك تتخذنى سائر الحيـــاة من أعوانك . والـكنك تعلم أن عنترة لا يهب سيفه إلا لعبس ، ولست أطمع فى النجاة وأنا اجبهك بقولى فى إيوانك وبين شيوخ قومك .

ثم اندفع كأنه ينشد قصيدا فرفع رأسه ورفع يديه مباهيافقال: لـكم كان لقومى من ثارات عندك وعند حلفائك ! ولـكم وطئنا بلاد طىء ! وكم أخذنا من غنائم البحرين والعراق! وكم أغرنا على قوافلك فى الحجيج ! وقد كنت أنا فى صدر الـكتائب أحوز الغنائم وأشتت الجموع .

فقال الملك غاضبا وسط صخب الغيظ من حوله .

— أتفخر على وتباهى بقتالى ؟ لقد كنت أطلبك أيها الشقى لأوقع بك عقابى . أتفخر على أيها الشقى فى مجلسى ؟

فقال عنترة : اننى أذكر الحق منذ سألتنى . ولست أخشى أن أقتل ، فـكم قتلت من الشجعان ولم أشعر بخلجة ألم أو رحمة

فى فؤادى . لست أطمع فى الحياة وأنا الذى يعرف هوانها .

فقال الملك وهو يمسك نفسه :

— لم أكن لأطيل معك الحديث لولا أننى عجبت منك وأردت أن أطلع على خبيئة أمرك . أليست عبس اليوم من حلفائى ؟ فما مجيئك إذا لم يكن طلباً للفخر، حتى تملأ فمك بأنك غزوت النعمان ؟

فقال عنترة فى هدوء :

— لا أيها الملك لم أرد بذلك فخرا .

فقال النعمان :

— انك فتى خدعك الناس منذ أشادوا بك وتحدثوا عنك ورددوا شعرك . فحملك زهوك على أن تسعى الى الأسد فى عرينه .

فضحك عنترة وأجاب :

— لكم سعيت إلى الأسود فى عرائنها . ولكنى أيها الملك لا أطمح الى حديث الناس عنى فانه لم يجدنى شيئاً .

فقال النعمان فى مرارة :

— ألم يجدك حديث الناس شيئا ؟ ألم يلحقك أبوك بعبس

بفضل هذه الأحاديث ؟ ألم تكن لولا تلك الأحاديث عبد شداد وابن زبيبة ؟

فقال عنترة في دعة :

— إن من يذكر أمي لا يأمن أن أذكر أمه .

فعادت الغمغمة الخانقة إلى الجمع حتى رفع النعمان يده عابساً يهدئ الناس ثم قال :

— لا بأس عليك ياعنترة فإنها فلتة مني . وما كان ينبغي لي أن أقولها وحياتك في يدي

وصمت حيناً ثم قال في لين :

— قل لي يا عنترة فيم أتيت إلي إذا لم ترد فخراً ؟ فهل بيَّت قومك عداوتي فبعثوك لتثيرها ؟

فقال عنترة : لا أيها الملك إن قومي لا يعرفون أين مكاني وليس بهم حرص إلا على مودتك .

فقال النعمان : إنك تحيِّرُني . فهل أنت مخبري عن أمرك ؟ أم هو سر لا ينبغي لأحد أن يطلع عليه ؟

فقال عنترة متردداً : أما وقد أبيت إلا أن تعرف الحق فإني لا أضن عليك به . أيها الملك . فما أتيت إلا لأطلب مهراً لابنة عمي .

فقال النعمان فى اهتمام : عبلة ؟

فقال عنترة : نعم عبلة أيها الملك .

فقال النعمان باسما : ولم تجد مهرها إلا من إبلى ؟

فقال عنترة هادئا : وانى لى أن أجد العصافير إلا فى مسارحك ؟

فقال النعمان : وعلى رغم أنفى ؟

فقال عنترة : لم اعتد سؤالا .

فقال النعمان ساخرا : ولو طعنك أحد هؤلاء طعنة نفذت من ظهرك ودقت عظام صلبك ؟

فقال عنترة هادئا : ما كنت اذن سوى أحد من يقتلون فى الحروب .

فقال النعمان فى سخرية : اما تخشى حزن عبلة ؟

فقال عنترة فى غضب : لو غيرك قالها ؟

فقال النعمان : اجب ولا تحجب شيئا . لقد قلت فى خطابى مالم يجرؤ احد على قوله، فما حرصك على رضائى ؟ قل ولا تحجب شيئا .

فقال عنترة : لست اطلب سخطك وإن كنت لا اباليه .

فقال النعمان : إنما أردت ان اعرف مقدار حبك لها . لقد تحدث الناس عنك وعنها حتى احببت ان اسمع منك حديثها .

فأطرق عنترة حينا ثم قال : أما إذ اردت ايها الملك ان احدثك عن عبلة فلست اضن به عليك . ان اسمها ليحلو لى اذا سمعته حتى لأحدث نفسى به لأسمعه خاليا .

إنها أيها الملكُ أعز على من انفاسى واحب من جوارحى . ولو كانت حياتى تدفع عن عينها دمعة لجدت بها راضيا . ولو أعترضتنى النيران فى سبيل تلبية كلمة منها لاقتحمتها . صورتها لا تزال تؤنسنى ، ونغم حديثها ما يزال يتردد فى أذنى . لا أعرف خيرا إلا ما ترضاه ولا شرا إلا ما تخشاه او تأباه . ليس فى الحياة جمال عندى إلا إذا كان فيه منها شبه ، ولو طويت لى الأرض لما كان فيها شىء يكافىء رضاها ، ولو طأطأت لى السماء حتى تناولت نجومها لأهديها اليها لوجدت ذلك دون قدرها .

فقال النعمان فى ارتياح :

إنك لتتحدث عنها حديثا عجبا . لقد سمعت شعرك ولكن فى حرارة قولك ما هو أوقع من الشعر .

فقال عنترة فى حماسة : هذا أيها الملك وصف اللفظ وليس

اللفظ سوى آلة ينقل بها الناس ما اعتادوا ان يحسوه فى نفوسهم من خسيس المعانى . إلا أن ما احسه فى نفسى لعبلة يضيق عنه اللفظ ، فهو ظل حائل وصدى فاتر لا يصف حقيقة ما أحمل لعبلة .

فقال النعمان فى رقة : اذن فقد جئت تطلب مهرها .

فنظر عنترة إليه كأنه يريد أن يتبين ما يقصد بقوله وهل عاد إلى السخرية منه .

وأدرك النعمان ما يدور فى نفسه . فقال مبادراً : أفتحب أن تعود بالعصافير من بابى ؟

فقال عنترة كأنه يحلم : إذن نبقيت لك أبد الدهر شاكراً .

فالتفت النعمان إلى رجل واقف عند رأسه وقال له :

ـــ امض به يا أبا الحرث إلى بيتك وفك قيوده وعد به أول شىء فى الصباح .

والتفت إلى عنترة باسما وقال :

ـــ وإنك منذ اليوم يا عنترة ضيفى .

فنظر إليه عنترة فى دهشة وبسط يديه حينا وهو صامت ثم صاح بصوت متهدج :

أيها الملك ! أيها الملك !

ثم طوى نفسه وأطرق وأدار وجهه وسار يسحب قيوده ويجر أبا الحرث الموكل به من ورائه .

١٠

بقى عنترة فى الحيرة سنين لم يكن يحسب أنه سوف يقضيها فيها ، ولقى عند النعمان فى أثنائها مكانة لم يكن يحلم أن الأقدار تجرى بها ، وحاز من الغنى ما لم يكن يخطر بباله ، وبلغ من المجد ما لم يبلغه أحد من سادة القبائل .

وأقام فى جوار صديقه الفارس أبى الحرث صاحب النعمان ، وقد أنس إليه منذ عاشره وكان يطرب إلى سماع شعره ، فلا يكاد يخلو منه مجلسه إلا إذا سار فى كتيبة إلى غزوة من الغزوات ، فإذا عاد لازمه فى غدواته وروحاته وفى أماسيه ولياليه . ولم تبخل الأقدار على عنترة بالشرف الأعظم الذى كان لا يناله إلا الأفذاذ من أبطال العرب وأدبائهم بأن تقرب من ملك الفرس كسرى . وكان عنترة بين حين وحين ينظر إلى خلفه ويذكر أيامه الخالية كما ينظر الواقف فوق رأس الجبل إلى الوادى البعيد الذى يراه دونه عند الأفق، فيراه غائماً غامضاً يحيط به الضباب ولا تبدو منه

إلا أشباح ضئيلة تتحرك خافتة مثل أشباح الجن التى طالما ظهرت له أثناء تجواله فى ليل الصحراء . ولكنه كان يرى فى ثنايا ذلك الماضى الجاثم صورة حبيبة لم تستطع الأيام أن تمحوها . صورة عبلة التى وهب لها قلبه وجعل فيها مناط أمله . وكان لا يفتأ يتذكر كيف رحل من وطنه يطلب مهرها الغالى ، وكيف دفعه ذلك الحب اليائس إلى اقتحام المهالك حتى جرفته المقادير فأقام بالحيرة هذه المدة الطويلة، وضرب فى أفاق العراق وفارس، وحل فى قصور مدائن كسرى، وقاتل مع أقوام لم يرهم من قبل، وحارب أقواما آخرين لم يكن بينه و بينهم ثأر ، فحارب فى سبيل النعمان تارة وفى سبيل كسرى تارة كأنه قد أصبح وحشاً صناعته سفك الدماء . وكان كلما تأمل ذلك الماضى أحس شيئاً فى صدره يشبه الثورة والحنق ، فإنما الأقدار أقحمته فى عواصفها العنيفة وهو مرغم لا يكاد يستطيع منها إنفلاتا .

و بلغت تلك الثورة بعد حين مبلغاً جعلته يقبل على الخمر لعله يغرق فى كئوسها همومه ، أو لعله يذهل عن ذكريات هذه السنوات بما فيها من مجد وما فيها من رق. فما كان مقامه عند النعمان ومحاربته أعداءه بأقل فى نظره من الرق و إن كان رقا تحيط به هالة كاذبة

من زخرف الحياة . وكان كلما فرغ إلى ذكريات حياته الأولى بدا له رقه الأول أهون قيداً وأخف ذلا . كان من قبل يغضب لأنه كان عبداً لشداد ، ولكنه كان لا يحارب إلا لقومه لكى يحمى حريمهم ويدفع الأذى عنهم ، أو لكى يفوز بالغنائم ويشتفى بإدراك الثأر من أعدائهم . كان يحارب من أجل عبلة وقوم عبلة لا من أجل هذه الأموال التى كان النعمان يغدقها عليه وهذا المجد الذى كان يلقى إليه أجراً لسيفه .

وأخذ يحس الملل يدب إلى نفسه شيئاً فشيئاً من المقام فى الحيرة ، ووجد أن ذكرى أرض الشربة والعلم السعدى تعاوده فى فترات متقاربة ، فلا يكاد يمر به يوم بغير أن تتحرك فيه شجونه عند الغدوات وعند الروحات . فإذا خلا إلى نفسه جاشت به وساورته حتى جعلت الحيرة تصغر فى عينيه ، وحتى هانت عنده تلك الأموال والجواهر التى ازدحم بها منزله ، وخيل إليه أن هذه الإبل التى تعد بالألوف ، وتلك النوق العصافير تثقله وتقعد به عن العودة إلى موطن سعادته . وزاد قلقه إلى فراق الحيرة فاستأذن النعمان مرة بعد مرة فى السفر ، ولكنه كان يدافعه ويتمسك به حتى بلغ الضيق مبلغه منه التبرم ، فأقبل على الخمر يعب منها كل

ليلة ما ينسيه ضجره . وأشفق صديقه أبو الحرث عليه من ذلك الضيق فشفع له عند الملك حتى أذن له بالعودة إلى وطنه فسارع عنترة إلى الاستعداد وانتظر بقلب واجف يوم الرحيل .

وأعد له أبو الحرث مأدبة حافلة في ليلة الوداع ، اجتمع فيها شيوخ الحيرة وفرسانها ، وكانت مأدبة صاخبة في غنائها ورقصها وخمرها . وشارك عنترة بانشاده من شعره فيها ، وأخذت القتيات تغنى بقطع من غزله في عبلة ، حتى مضى أكثر الليل ، ولم يبق في المجلس إلا صاحب الدار وعنترة . فقال أبو الحرث :

— من يدرى يا عنترة أين تدفع بنا الأقدار غداً . فلنجعل آخر عهدنا بالاجتماع حديثاً طويلا . وجلسا يتسامران ويشربان وقد مضى من الليل أكثره ، وهدأت ضجة الحيرة في سكون عميق .

وقال أبو الحرث وهو يملأ كأسين :

— ألك في كأس أخرى ياعنترة؟ إننى لا أزال أحس عطشاً .

فقال عنترة — لا بأس على إذا شاركتك في أخرى .

فضحك أبو الحرث وهو يبادر إلى كأسه فيجرع منها جرعة

كبيرة وقال : إنك لم تشرب الليلة كعادتك يا عنترة . وكأنى بك لم تطرب .

فقال عنترة وهو يرشف رشفة من كأسه : إننى الليلة لا أريد إغراق شجونى .

فقال أبو الحرث : أما أنا فلقد راهنت على زقين من زقاق خانقين . وأحب لو راهنت على آخرين .

فقال عنتره : انت تعلم أنها تصدعنى ، وأن رأسى لا يلبث معها أن يدور .

فقال أبو الحرث وهو يقرب له الفاكهة : ألا تذوق من هذا التفاح يا عنترة ؟ إنه من جنى حلب وهو يكسر شرة هذه الخمر . ثم ملأ لنفسه كأساً جديدة ورمى فيها بعض زهر النارنج وأطال شمها ، ثم جرع منها جرعة طويلة وقال لعنترة :

— أراك تشم التفاحة وتتأملها معجباً كأنك تناجيها .

فقال عنترة وهو يقلب التفاحة فى كفه :

— إن فيها ما يهز نفسى .

ثم أخذ يغمغم فى صوت خافت وأبو الحرث ينصت إليه . ثم أنشد أبو الحرث :

أشاقك من عبل الخيال المبرج   فقلبك فيه لاهج يتوهج

ونظر إلى عنترة قائلا أترانى حفظت هذا البيت يا عنترة ؟

فنظر إليه عنترة فى ارتياح وقال باسماً .

وإنك الشاعر يا أبا الحرث . إنك تحفظ الشعر منذ تسمعه .

واندفع ينشد سائر القصيدة حتى قال :

لئن أضحت الأطلال منها خواليا   كأن لم يكن فيها من العيش مبهج

فصاح أبو الحرث متمماً :

فقد طالما مازحت فيها عبيلة   ومازحنى فيها الغزال المغنج

أليس هذا هو البيت ؟ ثم ضحك ومال على أريكته فى فتور الخمر.

فقال عنترة ضاحكا :

— ما أحب إلىّ أن تكون راويتى .

ثم جعل ينتقل من قصيدة إلى أخرى وأبو الحرث يقاطعه بالبيت بعد البيت منها حتى مضى الليل وسمع عنترة صوتاً فقال لجأة :

— أما تسمع يا أبا الحرث حركة القوم ؟

فقام أبو الحرث إلى طرف البهو ونظر إلى البراح الفسيح الذى تحته وقال :

— صدقت يا عنترة . هذا الفجر قد بدا . وحق مناة إن هذا الرحيل يوحش ديارنا .

فقال عنترة وهو يقوم :

— لئن شكرتك يا أبا الحرث فلست بقادر على أن أوفيك حقك .

ثم فتح ذراعيه وعانقه عناقا طويلا .

فقال أبو الحرث : لئن كان فى الأيام مدة لكانت أمنيتى أن آراك .

فأجاب عنتره : ولئن تفرقنا فلقد عرفت فيك كيف يكون الصديق .

ثم صافحه ومضى خارجا وخرج أبو الحرث يشيعه صامتاً إلى المربد فى الفضاء الفسيح خارج البيت .

١١

سار عنترة فى ركبه العظيم يضرب فى الصحراء عائداً إلى أرض الشربّة والعلم السعدى ، حتى قطع فيافى اليمامة ونجد ودخل الى أرض الحجاز. ولكنه كان كلما اقترب من وطنه خالجته الشكوك

والمخاوف ، وأحس كأن الشعلة المتقدة فى صدره تضمحل وتخبو. فكان بين حين وآخر يسأل نفسه عما هناك فى تلك الأرض التى كان يتحرق لكى يعود إليها . وهل اذا هو عاد إليها وجد عبلة لا تزال مقيمة على عهدها ؟ وكان أحياناً يبلغ منه الشك ان يسأل نفسه أهو حقاً يحبها كما خيل اليه أم هى لجاجة الوهم تزعم له انه لا يزال يحبها .

وكان أحياناً يتمثل نفسه كأنه لقيها وحدثها فلا يدرى كيف يكون حديثه وحديثها بعد أن فارقها تلك السنين ، و بعد أن عاشر من عاشر من أقوام لا يشبهونها . لكم رأى من النساء وكم استمع الى غناء القينات البارعات الحسن من بنات العجم والكرد والأرمن ، وكم اعتاد فى حديثهن أن يترفق وأن يعبث وأن يمجن . فهل كان الحديث السهل الذى اعتاده من قبل مع عبلة يواتيه اذا لقيها أم يمتنع عليه ؟ وهل يستطيع اذا رآها أن يتذلل لها كما كان يفعل ويسمى نفسه عبدها ، ويجد متعة فى كلمة يسمعها أو بسمة عطف يضىء قلبه بها ؟

ولم يخل قلبه كذلك من القلق كلما تأمل قومه بعد أن غاب عنهم تلك السنين . فهل يعود ليجد عمارة بن زياد ومالكا عمه

وعمراً ابنه ويجد أباه واخوته جميعاً كما تركهم ؟ وهل يستطيع أن يعود إلى معاشرتهم وهم الذين عرف كبرياءهم وعنادهم ؟وهل يرضى أن يلقوه بما كانوا يلقونه به وهو عندهم عنترة الذى من عليه أبوه شداد ذات يوم بحريته وتفضل عليه بأن نسبه إليهم ؟

كان كلما اقترب من وطنه ثارت تلك الشكوك فى نفسه حتى كاد يحس أنه قد صار غريباً عن قومه ، وأنه قد أطاع وهماً كاذباً عند ما اعتزم أن يعود إليهم ، ومفارقة قوم آخرين كان يعيش بينهم سيداً ، ويسمر فى نواديهم ، ويعاملهم ويخاطبهم ويقاتل معهم وهو عنترة بطل العرب . فهؤلاء الذين عرفهم فى الحيرة وفى المدائن لم يقولوا له يوماً يابن زبيبة ، ولم يعيروه يوماً بسواد لونه ولا بهجنة نسبه . بل كانوا يعدونه سيداً كريماً لأنه كان سيداً كريماً، وقدموه وأعلوا مكانه لأنه كان جديراً بالتقديم والمكانة العالية . فما الذى حمله على أن يضيق بالمقام فيهم لكى يعود إلى هؤلاء الذين نشأ فيهم عبداً رقيقاً ، وقضى معهم الحياة فى نضال وكفاح حتى خرج عنهم أخيراً يضرب فى الأرض لكى يطلب مهر عبلة من عرين الأسد ؟ وقد حدثته نفسه مراراً أنه قد أخطأ وأن الأولى به أن يعود أدراجه إلى حيث يُقيم عزيزاً ،

ويغالب هذا القلب الذى طالما أذله وعذبه . ولكنه مع ذلك سار فى طريقه يدفعه دافع غامض كأن الأقدار هى التى كانت تسيره نحو غاية لا يدركها .

ولما صار فى أرض الشربّة بعد طول السير رأى أن يعرج على الوادى الرملىّ الذى طالما شهده وهو يرعى إبل شداد ، ذلك الوادى الذى كان مسرح صباه وشبابه .

وخطر له ذكر شيبوب الذى أحبه وصاحبه وكان فى كل مكان معه ، فتارة كان جاسوسه وتارة كان رسوله ، وحينا كان خادمه وحيناً كان سميره ، حتى فارقه فى العراق بعد أن رأى الفرسان يحيطون به ويطعنونه ويصرعونه عن فرسه الأبجر . ولم يدر أكان ذلك الأخ لا يزال حيا يرعى إبل سادته أم قد مضى فى سبيله كما مضى عن الدنيا من قبله ويمضى من بعده . ذلك الأخ الذى عاش ما عاش عبداً مرحاً ينعم فى رقه ولا يعبأ إلا بطعامه وشرابه وصيده ونسائه ، ولا يرى الحياة إلا مهزلة لا تستحق شيئاً سوى أن يسخر منها ويلهو فيها ثم يمضى عنها مرحاً اذا حان أجله .

ولما اقتربت القافلة من الوادى رأى عنترة على البعد شخصاً

على ربوة فخفق قلبه وعادت اليه صور الماضى حية كأنه لم يفارق تلك الأرض إلا منذ ليلة . وصوّب بصره الى الشخص فجعل يتأمله ، وأحس شيئاً فى قلبه يتحرك اليه ، فهمز جواده وأسرع نحوه وهو لا يزال ينظر الى وقفته متكئاً على رمحه . فلما اقترب من الربوة رأى شيبوب ينظر اليه ولا يعرفه . فلما صار منه على مسمع ناداه باسمه ، فما كاد شيبوب يسمع صوته حتى وثب نازلاً فى قفزات واسعة وهو مشمر عن ساقيه الطويلتين فاتحاً فمه الواسع فى بسمة تكشف عن أسنانه البيضاء . وترجل عنترة ووجد نفسه بين ذراعيه وهو يقبل وجهه وكتفيه باكياً ويصيح : عنترة !

فقال عنترة وهو يضمه فى حرارة :

— أنت هذا يا شيبوب مرة أخرى . إنك لأول من أرى ، وإنك لأول من أحببت أن أرى .

فقال شيبوب بصوت مختنق :

— وأنت هذا أراك حياً . أنت هذا حى المسك بيدى وأضمك إلى صدرى وأحس دفء أعضائك .

ثم أرسله من ذراعيه ونظر اليه فى دهشة وقال :

— إنى لا أكاد أصدق عينى .

وجعل يصعد فيه بصره ويصوبه فقال عنترة وهو يأخذ بذراعه:

ـــ أترى فىَّ ما تنكر يا شيبوب ؟

فقال شيبوب فى هزة فرح :

ـــ إن السرور يعقل لسانى .

فقال عنترة وهو يسير به بعيداً عن الطريق :

لقد افتقدتك ياشيبوب واشتقت إلى حديثك . فهل بنا إلى هذه الربوة فإن بى شوقاً إلى حديثك .

فقال شيبوب وهو ينظر نحو القافلة العظيمة التى كانت تسير مبطئة نحوهما :

ـــ ألم أرك صريعاً وقد أحاط بك الفرسان يطعنونك ؟ أهذه القافلة لك ؟

فضحك عنترة وقال : أكمل قصتك يا شيبوب ، رأيت الفرسان يحيطون بى ، ثم أطلقت ساقيك للريح تطلب النجاة .

فقال شيبوب : وهل كنت لأغنى عنك شيئاً ؟ اننى فكرت فى مثل لمح البصر ان خير ما أفعله أن أهرب وأنجو بنفسى .

فقال عنترة ضاحكاً : لكى تأتى إلى هنا فتنتظرنى . إن الحياة حلوة يا شيبوب أليس هذا ما حملك على الهرب ؟

فأجاب شيبوب جادا : قلت أعود إلى قومك فأنعاك إليهم ، فما كل يوم يقتل مثل عنترة .

فقال عنترة : ونعيتنى إليهم ؟

فأجاب شيبوب : وقضينا شهراً نبكى . لكم بكت زبيبة . إنها لا تزال تبكى ولا تصدق أنك هلكت . وما زالت تزعم أنك عائد إليها وأنا أكذبها .

فقال عنترة فى رقة : مسكينة أمى . ما أحب إلىّ أن ألقاها .

وأمسك لحظة وهو مطرق ثم قال :

— وهؤلاء يا شيبوب . كيف حال هؤلاء ؟

فرد شيبوب فى امتعاض : أتقصد عبلة ؟

فقال عنترة فى اهتمام : كيف هى يا شيبوب ؟

فقال شيبوب مختصراً : هى امرأه .

وكانت القافلة قد بلغت موضعهما ، فصاح عنترة يأمر بالنزول ، ثم التفت إلى أخيه فقال له .

— تقول هى امرأة ؟

فقال شيبوب : يجتمع الفتيات إليها كل يوم يرقصن ويغنين

قبل زفافها . لقد عرفت النساء وما هى إلا امرأة . هن يبكين يوماً ثم يرقصن ويغنين سائر الحياة .

فقال عنترة وهو يغمض عينيه : أهو عمارة ؟ أهو ابن زياد ؟

فقال شيبوب : إنك لا تزال تهواها .

فقال عنترة فى حزن : دع ذلك يا شيبوب ونبئنى هل هو عمارة ؟

فقال شيبوب : إنه هو . ذهب إلى أبيها بعد أن سمع أنك قتلت .

فصاح عنترة : ومن قالها ويلك ؟

فقال شيبوب فى خجل : ألم أرك صريعاً ؟ ألم أر الرماح تتخطفك ؟

فأدار عنترة وجهه فى حنق واستمر شيبوب قائلاً :

فعرض عمارة على مالك ألف ناقة مهراً لعبلة . وهل كان أبوها المتكبر ليأبى ألف ناقة ؟ فرضى به مسرعاً ولم يسأل إذا كانت من العصافير أم هى من النسور .

فأطرق عنترة صامتاً وقال شيبوب ناظراً إلى القافلة العظيمة التي تغطى الفضاء .

— ولكن كيف بلغت هذا ؟

فارتاح عنترة إلى تغيير الحديث وقال فى حزن :

— تسأل الأيام كيف تعبث بنا ؟ أنت رأيتنى فى حلقة لفرسان يطعنونى ثم أسرت وسجنت . ثم جيء بى إلى مجلس النعمان ليقتلنى . ثم خرجت من المجلس أقرب الناس إليه .

فتبسم شيبوب وقال : ليتنى كنت معك .

فقال عنترة : ومن يدرى يا شيبوب لعل الأقدار كانت تجعل أجلنا معا .

فقال شيبوب ضاحكاً : أما وحق مناة لو كنت معك لكان لى مع القوم شأن .

فأجاب عنترة باسماً : ولكنك لم تبق معى والشكر لمناة .

فنظر إليه شيبوب فى إعجاب وقال : لشد ما تغيرت يا أخى !

فأجاب عنترة كأنه يحدث نفسه : لقد تقلب بى الدهر وهزهزنى . كم حروب شهدتها وكم بلاد رأيتها . قضيت هذه السنوات لاهياً عن نفسى فكنت لا أعرف إلا الحروب والدماء ، وكنت أسمع أصداء الحديد كأننى أسمع غناء العذارى . كنت مثل الوحش الضارى أحب شيء عندى منظر الدماء . لم

أحارب طلباً لثأر، ولا دفاعاً عن حرم بل كنت أشعر بالغيظ يملأ قلبي كلما رأيت دوني قتالاً. فكنت أقتل وأقتل وأقتل ولا أشفي مع ذلك غيظي. ولكن حدثني أنت يا شيبوب عن قومك. كم غزوتم وكم غزيتم؟ وكم غنمتم وكم غنم الأعداء منكم؟ أما ذكرتم عنترة يوماً؟ أما افتقدتم مكاني في ليلة ظلماء؟

فقال شيبوب في حرارة:

— ما زلت أذكرك في صباحي ومسائي. وكلما تذكرت كيف رأيتك صريعاً وثبت من الأرض كأن ناراً تحرق قدمي. وكثيراً ما ندمت على أني لم أبق معك حتى نقتل جميعاً. كانت الحياة وحدي كئيبة يا عنترة. وها أنت ذا تعود إليّ مرة أخرى. ولكنك تغيرت.

فأطرق عنترة صامتاً كأنه غاب في فكره واستمر شيبوب فقال:

— لشد ما تغيرت يا عنترة حتى كأنك لست أخي. ولو لم أكن أعرفك وأعرف كل جارحة فيك لكذبت نفسي. ولكني أعرف كل إصبع من بدنك. فهذا جرح يوم عبعب وهذا جرح يوم الهرير، وهذا القطع أصابك يوم عراعر، وهذا

الذى كاد يودى بك يوم غزوة طيىء ، وهذه طعنة عمرو بن ود العامرى . وتلك طعنة مسحل بن طراق الكندى . أتذكر ذلك الكندى الذى حاربته من أجل عبلة ؟

فرفع عنترة رأسه فى شىء من الحنق وقال :

— ولكن ما جدوى حديثك هذا ؟ إننى أسألك عن هؤلاء .

فقال شيبوب متودداً :

— إنى أذكر هذه الآثار لأنها تذكرنى بأنك أخى ، ولولاها لما صدقت عينى . إننى أكاد أخاف من النظر إليك وأشعر هيبة فى حديثك .

فلم يملك عنترة إلا أن يضحك فى حزنه وقال :

— ومع ذلك فأنت لا تحدثنى إلا عن نفسك ونفسى .

فقال شيبوب :

— وحق مناة ما رأتك امرأة إلا تمنت أن تكون لها بعلا . إسمع نصيحتى فأنا أكثر الناس علماً بهن . لقد خرجت من عبس وأنت عنترة . ولكنك تعود اليوم امرءاً آخر غير عنترة . لقد كنت أحبك لأنك أخى . كنت رفيقاً وكنت عنيفاً ، وكنت ذليلاً وكنت متكبراً ، وكنت قوياً وكنت

ضعيفاً . ولكنى كنت دائماً أحبك ولا أنكمش إذا نظرت إليك عابساً .

وأما اليوم فأنت رجل آخر . ومنذ رأيتك وددت لو صرت لك عبداً . فكيف بهذه النسوة إذا رأين كل هذه القافلة التى تسير وراءك ؟ وكيف بهن إذا رأين هذه الريشة التى فوق عمامتك وتلك اللآلىء البراقة التى تتلألأ من تحتها ؟

فضحك عنترة وقام يسير فى الوادى وشيبوب يسير وراءه وقال : أما إنك يا شيبوب لا تزال كما كنت خبيثاً . ألا تذكر كيف كنت توقد غيظى ثم تطفئه ، وكيف ترسل الحقد فى قلبى ثم تسله كما تسل الشوكة من الأديم ؟ أنت لا تزال كما كنت .

فقال شيبوب وقد اتسعت بسمته :

— أطعنى يا ابن أمى ولا تطع كبرياءك . إنك وحق مناة جدير بأن تكون ملكاً . وسوف أخطب لك هند ابنة زهير سيد عبس .

فضحك عنترة وقال . حدثنى عن عبلة يا شيبوب فإن بى ظمأ إلى الحديث عنها .

فقال شيبوب : تلك التى زعمت أنها لك وأنها تنتظرك وإن

تطاول الانتظار بها آخر الدهر . إنى أريد أن أقطع قلبها كما قطعت قلبك .

فقال عنترة فى اهتمام : أما حزنت ؟ أما بكت ؟ أما شقت على ثوبها عند ما نعيتنى إليها ؟

فقال شيبوب: نعم بكت. ثم حزنت حيناً . ولكنها أطاعت عقلها بعد ذلك ورضيت بابن زياد . وموعد زفافها يوم عروبة .

ثم جعل يعد الأيام على أصابعه وقال : بعد ثلاثة .

فصاح عنترة : تقول إنها رضيت ؟

فقال شيبوب : أما قلت لك إن أباها قد رضى ؟ سوف تحرق قلبها وقلب مالك بن قراد . سوف أزوجك من هند ابنة زهير . ولن يستطيع أخوها قيس أن يأباها عليك . . . أخوها قيس ، فإن أباها زهيراً قتل .

فقال عنترة حزيناً : هند . قيس . زهير . هذه كلها أسماء أسمع لفظها ، ولكن عبلة قد تزوجت . إنك قلت قد تزوجت . أليس هذا ما قلت ؟

فقال شيبوب : قلت ذلك .

فقال عنترة : إذن فهل قدر على أن أعود إلى عبس لكى

أرى عرسها وأنا بعيد؟ كل قلبي غيظاً؟ إذن لقد قدر على أن أقطع هذه الصحارى فى سبيلى إليها لكى أمر بعرسها آخر الأمر مكدوداً مثل المسافر المسكين الذى يريد الحج إلى الكعبة إذا مر فى طريقه الطويلة بقصر البخيل الذى يحيى وليمة للعظماء، فينظر إلى الأضواء المنبعثة من القصر ويسمع أصوات الغناء ويسيل لعابه من الجوع إذا شم رائحة الشواء، وهو يسأل بصوت خافت أن يرسلوا إليه طعاماً فلا يسمع أحد صوته .

ثم أطرق حيناً ومضى شيبوب فى حديثه عن حوادث تلك السنين التى كان فيها عنترة بعيداً . ورفع عنترة رأسه بعد حين وقال :

— أنت ملأت قلبي حزناً . وأحس كأن هذا الفضاء يضيق بى . أقلت آنفاً أن عبلة كانت تغنى ؟

فقال شيبوب : لم أقل لك إنها تغنى . هن الفتيات يغنين لها ويجتمعن للرقص عندها . ولكنها امرأة كما قلت لك وتحب أن تكون زوجة رجل من سادة قومها . ولسوف تنظر إليك فى أسف إذا رأتك وتأكل قلبها غيظاً . سوف تحزن عليك إذا رأتك تدخل إلى عبس بهذه القافلة كلها .

فقال عنترة فى حزن : أمسك ويلك يا شيبوب . فان الجرح لا يزال دامياً . كنت حسبته قد اندمل وكنت أسأل نفسى كيف أكون إذا عدت إلى أرضى . وها أنت ذا تعيدنى إلى نفسى القديمة فجأة كأن تلك السنوات قد طويت كلها فى يوم . فأنا اليوم كما كنت لم يتغير فى قلبى شىء .

فقال شيبوب : وأما أنا فان قلبى ممتلىء حقداً كما كان . فهل تريد أن تعود إلى هؤلاء فتتذلل لهم وتطلب منهم بناتهم وهم يسمونك ابن زبيبة ؟

فقال عنترة حزيناً : لست أدرى كيف ألقى هؤلاء ولا كيف يلقانى هؤلاء . أننى نسيتهم حيناً وخُيِّل إلىَّ أننى لن أحس لهم خلجه فى نفسى . واست أدرى إذا عدت إليهم كيف يكون عيشى فيهم .

وأمسك عن الكلام لحظة وهو مطرق ثم رفع رأسه وعيناه مغرورقتان بالدمع وقال :

— لن أتعرض لعمارة ولن أتقدم إلى مالك أطالبه بوعده . لست أعرف أحداً من هؤلاء . فانما أنا أعرف عبلة . ولن أرضى أن تكون لى امرأة إلا إذا أحبت هى أن تكون زوجى .

فصاح شيبوب : أو ترضى بها ؟

فقال عنترة : قل لى يا شيبوب كيف هى ؟ متى رأيتها ؟ هل ما زالت تطلع كالشمس وتزهو كالقمر ويفوح نسيمها كالزهرة ؟ قل لى أما سمعتها تتحدث عنى ؟ أما قالت زبيبة إنها تحدثت عنى ؟ لقد حدثت نفسى مراراً أن أضرب وأن أطعن وأن أقتل حتى أفوز بها قسراً . ولكنى اليوم يا شيبوب حزين لا أريد ضرباً ولا طعناً . أنا أحبها ولكننى لا أرضى أن أفوز بها إلا إذا كان ذلك عن سبيل قلبها .

فضحك شيبوب وقال : ما أهون هـذا ! اطلع عليها بهذه الإبل ولسوف تفوز بقلبها .

فقام عنترة وأمسك بذراع أخيه وقال له جادا :

— اسمع يا شيبوب وأطعنى . ولا تتردد فى حرف مما أقول . عدنى أن تطيع بغير حرف تقوله يا شيبوب .

فنظر إليه شيبوب فى دهشة ثم قال بعد لحظة : ستجدنى مطيعاً .

فقال عنترة جاداً : لست أحب أن أعود إلى عبس إلا كما خرجت منها . إننى لا أحرص على غنى ، فإننى أقدر على أن أجد

قوتى بسهمى وقوسى . وإن أحرص على جاه ولا نسب ، فانى قد رأيت من الحياة ما جعلنى أسمو فوق كل هذا . قد كنت أغضب لأشياء أراها اليوم لا تغضبنى وكنت أحرص على أشياء أخرى لا أجدها اليوم جديرة بحرصى .

كنت أحقد على الناس عند ما كنت لا أعرف لى مكاناً بينهم ، ولكننى اليوم لا أبالى من يكون أبى ولا من تكون أمى ولا أين أحل بين الناس . هو شىء واحد لا أجد فى الحياة عنه عوضاً . وذلك حب عبلة . ولكننى أحبها لا لكى أمسكها . أحبها لكى يكون قلبها لى .

ثم التفت إلى القافلة العظيمة وأشار اليها قائلا :

— أترى هذه القافلة التي تملأ البطاح ؟ إذهب بها الآن إلى منازل عبس ، وسأبقى أنا هنا حتى تغدو إلىّ بعد أن تفرغ منها . اذهب بها ثم ناد المساكين الذين يسيرون هنا ورائى ، وأولئك الذين كانوا من قبل يحاربون معى ، والصعاليك الذين كانوا يلوذون بى. ففرق كل هذه الأحمال فيهم حتى لا تبقى منها شيئاً . وهذه الإبل التى تراها بين سوداء و بيضاء . فرق هذه بين الضعفاء حتى لا تبقى منهم واحداً بغير عطاء . فاذا بقى منها

شيء فأنحره، وألق بها فى القفر لتكون وليمة لوحش السباع .

وهذه النوق العصافير التى أتيت بها لتكون مهراً لعبلة . إذهب بها إلى مالك بن قراد وقل له هى هدية اليه لينحرها يوم زفافها ، فيطعم منها قوم عمارة بن زياد ومن يجيء من أحياء العرب ليشهدوا عرسه . ثم أحمل هذه الأحمال التى تراها على الإبل السوداء فقد أودعت فيها تحفاً من طرائف المدائن لتكون هدية لعبلة يوم جلوتها ، خذ هذه واذهب بها إليها وأبلغها أننى كنت وعدتها يوماً فى غضبى أن أهدى إليها هدية عند زفافها . قل لها هذه هديتى بدل التى وعدتها . قم منذ الساعة ولا تنطق بحرف .

ثم ذهب إلى القافلة فأنزل بعض الأحمال ونحاها إلى جانب قائلا :

— أما هذا فنصيبى . هذه خمر معتقة أجعلها نصيبى ، لعلى أقدر على أن أغرق فيها همومى .

وحاول شيبوب أن يتكلم فأشار إليه عنترة بيده يأمره السكوت قائلا :

— لقد وعدتنى أن تطيع يا شيبوب . إذهب فافعل ما أمرتك

به . فاذا أرادت عبلة أن تختارنى بعد ذلك وجدتنى كما خرجت من عبس يوم خرجت وحيداً .

أقلت إن موعد زفافها بعد ثلاثة .

فقال شيبوب حزيناً : نعم يوم عروبة .

فقال عنترة : سأنتظرك هنا . إلى أن يمضى عروبة .

ثم وثب على فرسه فركبه وأغمد فى جنبيه حد الركاب، فانطلق به فى الوادى

ووقف شيبوب حيناً ينظر فى أعقابه فى دهشة . ثم هز رأسه ونادى الركب أن يتجهز للسير .

١٢

أمضى عنترة الأيام الثلاثة يضرب فى فجاج الصحراء يصيد طعامه ، ويعكف فى الليل على زقاق الخمر المعتقة . وكان فى أثناء ذلك موزعا بين موجات عنيفة من أشجان متصادمة متعارضة . فحينا يثور به موج من الحزن والجوى حتى يرى الفضاء يضيق به ويود لو لقى عدواً حانقاً فيسدد طعنة إلى قلبـــه فيخلعه من الحياة ، وحينا تملؤه موجه أخرى من الغضب فيهم أن يذهب إلى

قومه فيسوى مع خصومه الحساب عسيراً لما أصابه قديماً وما أصابه حديثاً . وتعتريه بين هذه وتلك حالات هدوء ساهم واجم فيحس كأن قلبه قد انصرف عن كل شيء ، وأنه سلا عبلة فلم يبق له عنده ما يحمله على غضب ولا على حزن . وكان في أثناء ذلك كله ينتقل بين شعاب الجبال وثناياها حيث كان ينتقل من قبل وهو يرعى إبل أبيه شداد ، يغنى وينشد الشعر ويحدث نفسه عن عبلة خالياً . فكان كلما عرج على موضع ثارت به ذكرياته فيقضى فى تأملها حيناً كأنه فى حلم ثم يمضى عنه وهو يغمغم ببعض أشعار مما قاله عنده فيما مضى .

فعرج على الصخور الملساء التى طالما توقف فيها بعد نزول المطر ، وطالما شرب من الماء البارد المتجمع فى فجواتها ، واطلع فيه على صورة وجهه وهو حزين لأنه لا يشبه وجوه الفتيان الذين كانوا يسيرون فى عبس معجبين بلممهم السوداء . وعرج على بطون الوديان التى تشقشق فيها الأصفر بعد أن جف وغطى سطحها العشب والشوك والصبير والحنظل . وكان يميل بين وقت وآخر على زهرة من العرار أو الخزامى أو الأقحوان ، فيتأمل لونها وشكلها ويشم رائحتها كأنه يلقى صديقاً عزيزاً بعد أن فرقت الأيام بينهما حيناً .

وكان فى تلك الجولات يقف أحياناً فيرفع ذراعيه ويملأ صدره من الهواء ، كما كان يفعله وهو فتى ، بعد أن قضى تلك السنوات الماضية فى عواصم الريف لا يكاد يعرف كيف يملأ صدره من الهواء .

فاذا تذكر أيامه التى قضاها فى الحيرة والمدائن وتذكر تلك القافلة العظيمة التى عاد بها تحمل الجوهر والحلى والحلل والتحف من طرائف فارس والروم وأذربيجان ، ثم تذكر أنه بعث بكل ذلك مع أخيه شيبوب ليفرقه فى عبس بين الضعفاء والصعاليك ، أحس ارتياحا كأنما قد تخلص من ثقل كان يجثم فوق صدره ، ودب اليه شعور عجيب بأنه قد استعاد روحه الذى كان قد فارقه منذ دخل أرض العراق .

وعند ذلك كانت تلك السنوات التى قضاها بعيدا عن أرضه تلوح له كأنها سنوات سجن ضيق شاهت فيها نفسه حتى كاد ينكرها ، وتغير فيها قلبه حتى كاد يصير إلى قلب وحش ضار . وخيل اليه أنه قد عاد إلى حيث يستطيع أن يعرف النور والظلمة وحيث يرى النجوم الساطعة والبدر المتألق الزاهر ، والشمس التى تبسم حينا وتحرق حينا ، والهواء الذى يعصف حينا

ويهب فى وداعة حينا . هنا كان يستطيع أن يأكل من، صيده ويصادق صديقه ويعادى عدوه ؛ فاذا ذهب بعد إلى غزوة ذهب إليها مع قومه لكى يغنم معهم غنيمة ، وإذا حارب عدوا مغيرا حاربه ليدافع عن حرم عبس وعن شرفها . فلم يكن بعد ليحارب كالوحش الضارى ، ولا يجد مكافأته فى سفك الدماء والاستكثار من الغنى . لقد عاد إلى أرضه حيث يستطيع أن يستعيد حياته التى كان يحس فيها معنى الحياة .

كان يحزن ويغضب ويأمل وييتئس ، ولكنه كان فى كل ذلك يجد فى الحياة علالة تجعله يحرص عليها .

ولم يخل قلبه فى كل تلك الجولات لحظة من ذكر عبلة ، ولكنه كان كلما ذكرها عجب أشد العجب من التغير الذى أصاب حبه لها . كان حباً ثائراً دفعه من قبل إلى قتال كل من حدثته نفسه بزواجها ، فأصبح حباً عجيباً فيه عتب على عبلة وحدها ، ولا يبالى بعد ذلك أحداً . فلم يحس وخزة غضب عند ما تصور أن عمارة سوف يزف اليه ، ولا عند ما عرف أن أباها قد رضى بتزويجها ، ولا عند ما قال له شيبوب إن الفتيات يجتمعن عندها يرقصن ويغنين فى انتظار يوم جلوتها . وكأنما

كان يشعر فى قرارة قلبه اطمئناناً الى أنها لن تتزوج ولن
ترضى بأن تزف إلى عمارة وأنها سوف تعود اليه هى معتذرة
باكية . وكم تذكر أنه بعث اليها هداياه وأنه بعث إلى أبيها
مهرها داخله نوع من الابتهاج . كأنه قد أدرك منها ومن أبيها
ثأرا كان له عندهم . فاذا ما حضرته أنه قد يعود فيجدها
قد صارت زوج عمارة لم يجد حتى يأس ، بل وجد فى نفسه قناعة
أن يقضى سائر الحياة عاتبا يناجى صورتها فى حزن وكبرياء .

ومضى اليوم الثالث وانقضى يوم عروبة الموعود ، وكان
قد عاد إلى الربوة المشرفة على الحى من بعيد ، وهبط الظلام
فجأة بعد أن غربت الشمس ولكن القمر لم يلبث أن أضاء
الفضاء . فأخذ عنترة زقاً من الخمر وفضلة من لحم غزال مشوى
بقى عنده ، ثم صعد إلى أعلى الربوة وجلس يشرب وهو يتأمل
السهل الممتد تحت عينيه . واتجه الى ناحية الحلة التى فيها
قومه وقد بدت على البعد فى ضوء القمر غامضة كأنها ظلال
من سحابة داكنة ، تمر تحت الشمس ، وجعل يتأمل النيران
الموقدة بين البيوت لعله يرى عند شعب الجواء نيرانا مشبوبة
تدل على ليلة الزفاف .

ولكنه لم يتبين على البعد من شعب الجواء سوى ظلال غامضة فى ضوء القمر الخافت تلوح مثل منظر الأحلام . هذه هى البقعة التى تقيم فيها عبلة وأهلها تبدو له مثل نقطة ضئيلة فى الليل ، وهى التى حركته ودفعته وأثارته . هى التى أحزنته حيناً وبعثت فى صدره الآمال حينا ، وهى التى خرج من أجلها إلى العالم الفسيح الذى كاد يسلبه روحه ، ثم هى التى عاد من أجلها يضرب فى فجاج الصحراء ، ويقطع قلبه قلقا ويقضى لياليه ساهدا يقلب البصر فى الآفاق خاشيا أن تلوح له فيه نيران تنبىء بليلة الزفاف .

وبقى عنترة يشرب ويقلب نظره فى الفضاء حتى طلع الفجر فغفى إغفاءة طويلة أفاق منها على صوت يناديه والشمس ترسل شعاعها عليه من وراء التلال .

وأصاخ بأذنه إلى الصوت فعرفه ونهض مسرعا يثب فوق الرمال حتى وجد نفسه بين أحضان امه زبيبة ، وكان شيبوب وقف إلى جوار بعيرها يريد أن ينيخه . وأرسلت زبيبة ابنها من بين ذراعيها وزغردت وهى تنظر اليه فى ابتهاج ، ثم ألقت نفسها عليه مرة أخرى تقبله وهو يمسح على رأسها بعطف وقال لها :

— إنك لأول من كنت أحب أن أرى اليوم يا أماه .

فقالت فى صوت مختنق :

— لقد أحسست منذ أيام أنك قريب منى . كنت أعرف دائما أنك عائد إلى ولم أصدق ما قال هذا .

وأشارت إلى شيبوب بنظرة لائمة ، وكان واقفا حيالها يبسم ابتسامته الواسعة . ولم يجد عنترة فى دفعة اللقاء ما جعله يتفرغ لتأمل ملابس أمه وأخيه ، إذ كانا يلبسان مجموعة من الثياب عجيبة اختارها كل منهما من بين أحمال القافلة طاعة لهواه . فكانت زبيبة فى حلة حمراء ، وجعلت فى قدميها خفا من الفرو الأسود، وتمنطقت بمنطقة فضية نزعتها من حمائل سيف ، وتقلدت ببعض قلائد من العقيق والمرجان، ولبست أساور من الكهرمان والفضة تتدلى فضفاضة عند رسغيها .

وكان شيبوب يلبس مثلها ثيابا عجيبة من عمامة ذات ريشة ولآلىء ، إلى ثوب محلى بالقصب إلى سيف مرصع بالجوهر ،ولم يبخل على رمحه ببعض الحلية من عقود المرجان وشرائط الحرير .

وتبسم عنتره عندما تنبه إلى ملبسهما بعد حين ولكنه لم يجد متسعا للحديث فقد كانت عبس تتحرك نحوه بكل من هناك من أهلها .

ونظر عنترة إلى القادمين وتهلل وجهه فرحا ، والتفت إلى شيبوب وقال له هامسا : أكان زفافها ؟

— فأشار شيبوب إليه إشارة مرحه قائلا :

— سأحدثك حديثاً طويلا .

وجاء القوم جماعة بعد جماعة يحيون عنترة ، وكان فتيان عبس فوق خيولهم يتلاءون البطحاء الممتدة فى أسفل الربوه ، يهتفون باسم عنترة ويتراكضون ويلوحون بالرماح والسيوف . وجاء فى صدرهم قيس بن زهير وآل جذيمة سادة عبس ، ثم أقبل أبود شداد وأخوته وجاء الشيوخ من آل زياد ، حتى عمارة نفسه أقبل عليه يحييه . وكان عنترة يلقاهم باسما ويحييهم فى هدوء وهم ينظرون إليه فى عجب أن يكون ذلك هو عنتره . وكان يلقى إلى كل فرد تحية هادئة مع كلمة عطف ومودة ، وكان يحس سعادة كبرى كلما رأى على قومه بعض هداياه . وكان النساء والفتيات يقبلن عليه ضاحكات يرحبن به ويرفعن بأصابعهن ما حول نحورهن من العقود المتلألئة التى أهداها إليهن ، أو يلوحن له بمعاصمهن ليظهرن الأساور التى تحليها مما فرق شيبوب بينهن .

ثم أقبل مالك بن قراد فى أهله ، ثم جاءت أخته مروة ابنة شداد

وإلى جانبها عبلة تمشي على استحياء، فرآها مقبلة تنظر من بعيد إليه بعينيها الواسعتين لا تطرف، وتكاد تتعثر في مشيتها. وكان يبدو على وجهها ما يشبه أن يكون ابتسامة. ولكنها كانت مترددة فيها شيء من الارتباك وشيء من التلهف.

وحيا عنترة اخته مروة بسمة عاطفة، وهمت في نفسه ثورة كادت تنفلت من حكمه، وفكر في مثل لمح البصر ما هو قائل لعبلة بعدها. أيلقاها في جفاء صامت أم يقرعها بتحية من اللوم قاسية؟ ومرت عليه لحظة قصيرة طويلة امتلأت فيه نفسه حفيظة وحنقا، وكاد ينطق ولكنه سمع اخته مروة تضحك وتقول له في عبثها الذي اعتاده منها:

— لقد حسبت انك سوف تخطف عبلة منذ تراها.

فنظر إلى عبلة فرآها تمد إليه يدها، ورأى في نظرتها وحركتها وتعبير وجهها ما سلى منه الحنق فجأة، فأقبل عليها يحييها في ابتسامة تنم عما كان في قلبه من الألم والعتاب.

وما كاد يأخذ يدها مصافحاً حتى وجد أنه يقاوم دفعاً قوياً لا يقدر على صده. ووجد قلبه الذي خيل اليه في بعض تردد شجونه أنه قد غمض وانبهم عليه مازال كما عرفه قديماً. فهذه عبلة

التى كانت تهزه وهى مازالت تهزه، وهذه عينها التى كانت تسحره ما زالت تبعث إليه فتنتها، وهذه نظراتها التى كانت تعبر له عن أدق المعانى ما زالت فصيحة فى تعبيرها وتبيينها، وهذه يدها تمتد إليه كما كانت تمتد إليه فيشعره لمسها أسمى السعادة، وهذا صوتها العذب الذى طالما غنت به اشعاره، وملأت به شغاف قلبه بهجة وكبرياء. هذا صوتها الذى طالما نادته به فخيل إليه أن الجسد هو الذى يناديه، قد عاد إليه وطرق أذنيه. وها هى ذى عبلة مرة أخرى تقول له :

— عنترة مرحباً !

وهم بغير تفكير أن يرفع يدها إلى شفتيه، وكأنها أحست بهذه الحركة الدقيقة وأدركت بوجدانها ما فى نفسه فقبضت يدها فى ارتباك وحاولت أن تجد غطاء من اللفظ تتوارى به من أعين قومها الذين وقفوا جميعاً ينظرون إليها و إلى عنترة، ولكنها عجزت أن تجد لفظاً، فأغضت طرفها وغمغمت بعض ألفاظ تحية مضطربة، وخيل إليها أن تلك اللحظة القصيرة الخاطفة التى وقفت فيها حياله قد امتدت فصارت دهراً. فلوت رأسها تريد أن تفسح لغيرها ممن يتزاحمون على تحية عنترة ولم يجد عنترة من اللفظ ما يستطيع به

أن يعبر عما أراد أن يقوله سوى أن قال بغير وعى :

— سيدتى ! ثم أرسل يدها . فصاحت مروة ضاحكة مرة أخرى قائلة فى خبث :

— أما سمعتم قوله ؟ عنتر عبد عبلة .

فانفجرت ضحكة من الحاضرين حولها . ونظرت إليها عبلة فى ارتباك ، وأغضت واحمر وجهها ، ولكن سحابة الوجوم انقشعت عند ذلك وانطلق عنترة يقول لأخته فى مرح :

— إنك أيتها الأخت الخبيثة تذكريننى بأيام سعيدة . أيام كان عبثك الخبيث يغيظنى .

فقالت : أما يغيظك اليوم يا عنترة ؟

ثم اتجهت إلى عبلة فى خفة وقالت :

— ولكنه يغيظها . انظر كيف يظهر على وجهها ما تحمل من الكراهة لى . ماهذا اللقاء الفاتر يا عبلة ؟ أما كنت بالأمس تبكين وتقولين لى : متى أراه يامروة ؟

هاهو ذا دونك فتعلقى برقبته .

فعاد الضحك إلى الجميع وأحسّ عنترة أن كل ما داخله من الغضب والعتب قد تبدد فى لحظة ، وأقبل على الذين حوله يرد

تحياتهم ولكنه كان لا يرى فى الوجوه سوى صورة عبلة . ولا يسمع من اللفظ إلا صدى صوتها .

***

وغربت شمس ذلك اليوم مرة أخرى كما غربت سائر الأيام ، وكانت النيران توقد عند شعب الجواء وفى حلة عبس ، واصداء الغناء تتردد بين الخيام من كل جانب بشعر عنترة الذى قاله فى الحنين وهو بعيد .

واجتمع فتيان عبس على الخيل في الفضاء الرحب حول الحلة يتطاردون ويتراقصون فوق الجياد ، بعضهم واقف على ظهورها وبعضهم يتقلب على جنوبها ويدور من تحت بطونها ، وخرج عنترة راكباً وكانت عبلة على الجواد أمامه وهو واقف خلفها على ظهر الجواد شاهراً سيفه يلمع فى ضوء النيران الموقدة ، وركض جواده بها فى وسط حلقة الفتيان وهو ينشد :

أرض الشربَّة تربها كالعنبر ونسيمها يسرى بمسك أذفر
يا عبل كم من غمرة باشرتها بمثقف صلب القوائم أسمر
فأتيتها والشمس فى كبد السما والقوم بين مقدَّم ومؤخَّر

وكانت الأصداء تتردد فى الفضاء من إنشاد الفتيان بشعر عنترة

أنا فى الحرب العوان   غير مجهول المكان
أينما نادى المنادى   فى دجى النقع يرانى

ولما انتهى الحفل الصاخب إلى مطلع الفجر ، ركب عنترة وزوجه عبلة إلى السرادق العظيم الذى أقامه شيبوب لهما فى أقصى الحلة ، ذلك السرادق الذى أهداه إليه كسرى ومازالت القبائل تتحدث عنه كأنه المدينة إذا أقيمت قوائمه . وكانت جوانبه محلاة بنقوش الذهب ، ودعائمه ملبسة بصفائح الفضة . فإذا أضاءت فيه المصابيح فى الليل تلألأت أنوارها فوق فصوص الجوهر المنثورة فى جوانبه.

وسار شيبوب وراءهما يشيعهما حتى دخلا إلى السرادق فقال ينادى عنترة :

— أما كنت تريد أن أحدثك حديثاً طويلا ؟

فنظر عنترة إليه باسماً ، ثم التفت إلى عبلة وأمسك بذراعيها ناظراً إلى عينيها وقال :

— لا بأس عليك ياشيبوب فإنى أحب سماع الحديث منها.

ثم ضمها بين ذراعيه فلبدت فى صدره ، وأغمض شيبوب عينيه مغمغماً ببعض ألفاظ مبهمة ومضى عنهما يمسح دمعة سرور جالت فى عينيه .